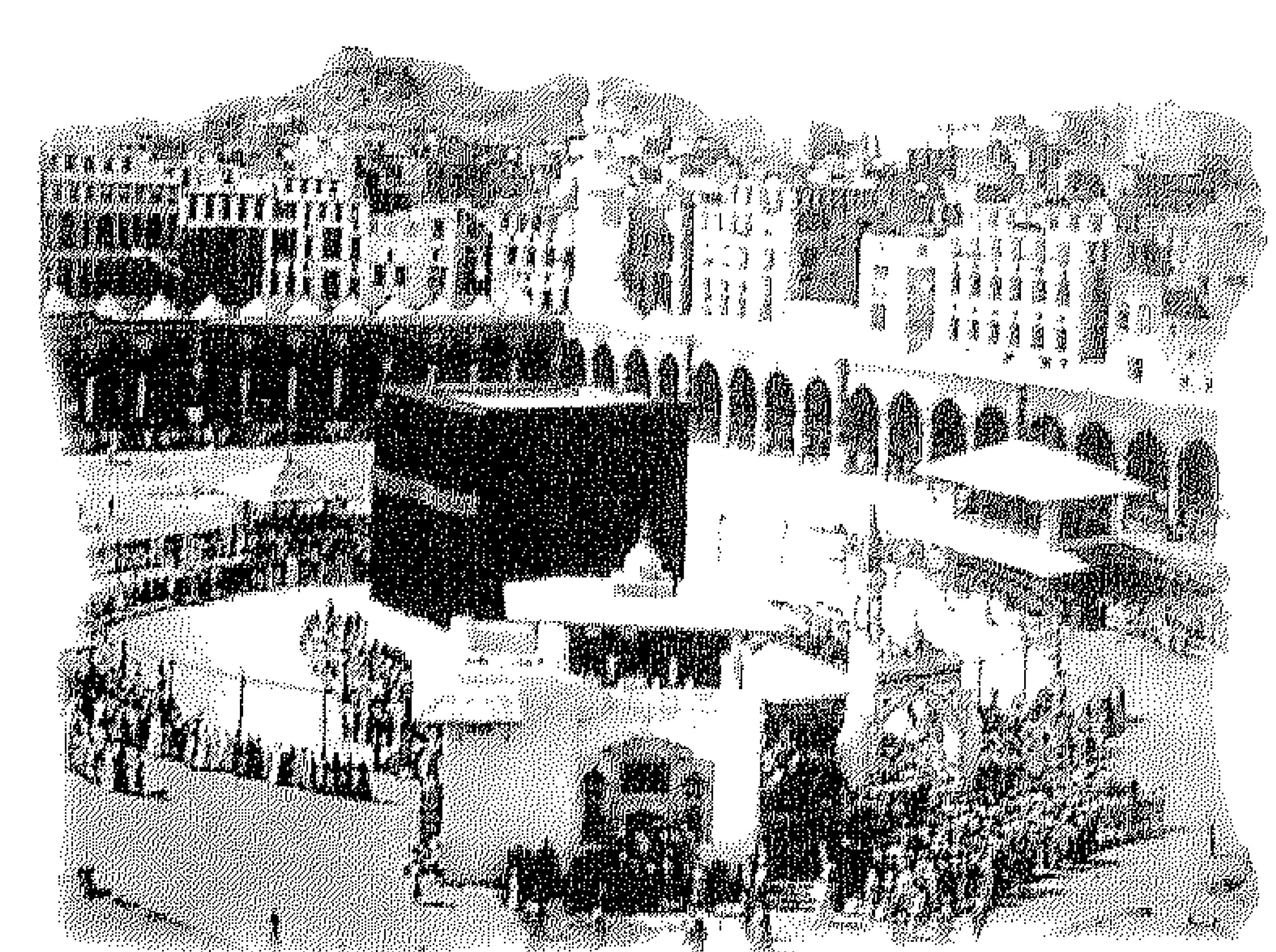
أناشيد الحاج بوي مونشون

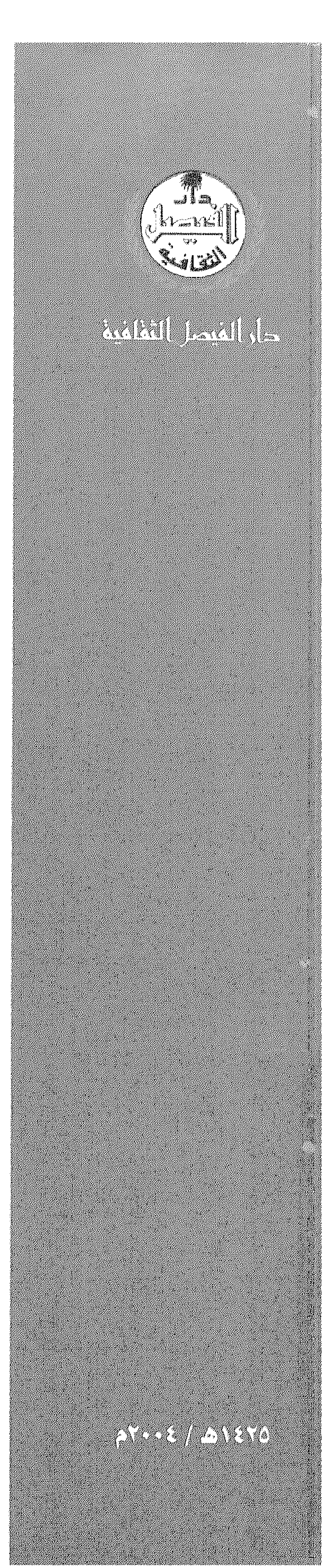
رحلة إلى مكة في القرن السادس عشر
لماريانو دي بانو إي رواته





ترجمة: الدكتور عبدالله اجبيلو

مراجعة: الدكتور عبدالله العمير



دار الفيصل الثقافية

١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م



أناشيد

الحاج بوي مونثون

رحلة إلى مكة في القرن السادس عشر

لَماريانُو دي بانُو إي رُواته

ترجمة : الدكتور عبد الله احبيلو

مراجعة : الدكتور عبد الله العمير

ⓒ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٤٢٤هـ
دار الفيصل الثقافية
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
إي رُواته، لَماريانو دي بانو
أناشيد الحاج بوي مونثون رحلة إلى مكة في القرن السادس عشر/ لَماريانو دي بانو إي رُواته؛ عبدالله اجبيلو (مترجم) ـ الرياض.
١٥٢ ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ×-٠٤-٨٩٠-٩٩٦٠
١ ـ الحج ـ رحلات أ ـ اجبيلو، عبدالله (مترجم) ب ـ العنوان
ديوي ٣١٢٠٤ر٩١٥ ١٤٢٣/٤٨٧٨

رقم الإيداع: ١٤٢٣/٤٨٧٨
ردمك: ×-٠٤-٨٩٠-٩٩٦٠

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
ص . ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣
هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ فاكس ٤٦٥٩٩٩٣

دار الفيصل الثقافية
ص . ب ٣ الرياض ١١٤١١
الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

المحتويات

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فلقد أسعدنا كثيراً العثور في مكتبة تطوان بالمغرب على هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم إلى القارئ العربي. ويعود سبب هذه السعادة إلى كون هذا الكتاب يتناول رحلة إلى مكة المكرمة في زمن بعيد يقارب الأربعة القرون، قام بها موريسكي مسلم ظل محافظاً على دينه، شاداً عليه بالنواجذ كالقابض على الجمر، في بلد وزمن صعب عانى فيه الموريسكيون كل أنواع الاضطهاد والمحن.

ولا يوجد مسلم يذكر الموريسكيين إلا ويشعر بالحزن والأسى على ما آلت إليه أوضاع هذه الأقلية المسلمة في إسبانيا حيث طردوا منها، أو أرغموا على إخفاء دينهم،وقطع صلتهم بالموارد الثقافية والشرعية التي يستقون منها علوم دينهم؛ ممّا سبب لديهم جهلاً واضحًا حتى في أبسط الأمور، ونلمس ذلك جلياً من الأخطاء الشرعية والتاريخية التي وقع فيها الحاج بوي، صاحب الأناشيد، والتي قمنا بالتعليق عليها في مواضعها.

وعلى أي، فإن هذا الكتاب ذو قيمة كبيرة لأنه قد يكون الأول من نوعه في أوروبا، بعد وصف لكاتب إنجليزي مجهول في كتابه "وصف الرحلة السنوية أو حج المسلمين الطوارق والموريسكيين إلى مكة المكرمة في الجزيرة العربية"

قام بالرحلة نفسها مع قافلة الحجاج من مصر إلى مكة سنة ١٥٨٦م، ويوافق وصفه تماماً ما نجده في هذه الأناشيد. كما تكمن قيمته في كون شارحه وواضع حواشيه وناقله إلى الحرف اللاتيني قد قام بذلك وطبعه في سرقسطة سنة ١٨٩٧م.

وهكذا فإن هذا الكتاب يحمل في طياته وبين صفحاته كتابين متميزين. ولهذه الأناشيد قيمة كبيرة؛ إذ تسلط الضوء على العديد من القضايا والأحداث التي أشار إليها الناظم بالإضافة إلى الاستشهاد برحلات أخرى كرحلة علي بك العباسي الإسباني.

ومن المعلوم أن الأناشيد مكتوبة بالأعجمية التي تصعب قراءتها على غير المتخصص والمتعود على قراءة هذا النوع من النصوص، لأنها لغة إسبانية مكتوبة بحروف عربية بخط اليد. ويعود سبب ذلك إلى أن الموريسكيين أصبحوا لا يجيدون العربية، ولكنهم يكتبون بها فقط، وذلك خوفاً من أن يقرأ أعداؤهم ما يدونونه حول أمور دينهم ودنياهم، فيقعوا ضحية بطش محاكم التفتيش.

يحتوي هذا الكتاب على مقدمة وضعها الكاتب إدواردو دي سأبيدرا المنتمي إلى الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد، تطرق فيها إلى المستعربين الإسبان، وطريقة كتابة أسماء الأعلام العربية ونقلها إلى الحرف اللاتيني مع ما ينتج عن ذلك من تحريف لبعض الكلمات العربية.

وبما أن هذا الموضوع الأخير هو الذي تناوله واضع المقدمة بإسهاب، فقد ارتأينا ترجمة الجزء الأول فقط من هذه المقدمة التي قد تهم القارئ العربي.

وتحتل الحواشي والتعليقات والشروحات التي وضعها ناقل المخطوط إلى

الحرف اللاتيني الحيز الأكبر من الكتاب، حيث نجد العديد من الأحداث التاريخية والمواقع الجغرافية والأمور الدينية التي يشرحها حتى يسهل فهمها على القارئ الإسباني.

ومن البديهي أن بعض التعليقات لا يخفي فيها صاحبها تعصبه للمسيحية عندما يعلق على ما جاء في الأناشيد من تمجيد وتعظيم للإسلام والمسلمين.

وبطبيعة الحال، فإننا أغفلنا ترجمة بعض هذه التعليقات لما بها من مساس بالإسلام، ولأنها لا تضيف شيئاً لفهم الأناشيد.

كما أننا ارتأينا أن ندرج ضمن الدراسة الأولية عن المخطوط الفصل السادس والعشرين الذي يتناول التاريخ المحتمل لرحلة بوي مونثون يقع بين صفحة ٢٨٥ و٢٩٣ من الكتاب.

ونظراً لأن بعض الأسماء الأوروبية لا تستقيم كتابتها بالعربية، ولنسهل على القارئ معرفتها في حالة الرجوع إليها، فقد فضلنا تركها مكتوبة بالحرف اللاتيني.

وبالإضافة إلى هذه الدراسة القيمة لهذه الأناشيد، فإن الاهتمام بها مازال قائماً، حيث عثرنا على دراسة قامت بها باحثة من جامعة أمريكية سنة ١٩٨٢م. إلا أن هذه الأناشيد لم تنل الاهتمام من طرف الباحثين العرب، مع أنها تقدم للمؤرخ والجغرافي على السواء معلومات غاية في الأهمية.

والله الموفق..

أ.د. عبد الله اجبيلو

الرياض ١٤٢١/١١/٢٠هـ

مقدمة

ليس هناك اهتمام - في أي بلد مسيحي - أكبر من اهتمام بلدنا بالمسائل المتعلقة بالمسلمين. لقد كان الدافع لدراسة الآداب الشرقية حب اكتشاف كنوز العلوم القديمة التي حافظ عليها وطورها عرب العصر الوسيط. وفي الوقت الحاضر انتشرت هذه الدراسات في بلدان أوروبا المتقدمة، سواء أكانت جزءاً من الثقافة العامة، أو أداة للتأثير السياسي أو العلاقات الاستعمارية. لكن بالنسبة لإسبانيا كان الدافع دوام حكم المسلمين من سنة ٧١١م إلى ١٤٩٢م تقريباً. لقد أدوا شعائرهم قانونياً وعلنياً حتى سنة ١٥٢٦م، وبعدها سراً مغامرين بذلك حتى تم طردهم سنة ١٦١٠م. إن القضايا المتعلقة بالحضارة الشرقية يجب أن تعد قضايا وطنية، ولا يمكن فهم تاريخنا ولا تحليل لغتنا دون أن نتعمق في طريقة عيش أبناء الجزيرة العربية تابعي تعاليم القرآن.

وهذا لا يعني - كما يتصور البعض هنا كما خارج الحدود - أن جذور الحضارة الإسبانية تتصل أساساً وعمقاً بالحضارة العربية، مما تصدق معها المقولة بأن أفريقيا تبدأ في جبال البرانس. إن هذا البلد الذي أثر فيه الرومان بسرعة، والذي سقط ككل مناطق الإمبراطورية الغربية تحت سيطرة الجرمانيين والذي أصبح إقطاعياً، عمل ببطء وعناء، مثله في ذلك مثل فرنسا، على استرجاع الأرض والوحدة السياسية. وخطوة خطوة كان يتأقلم دائماً مع تأثير الدول التي تجاوره وحركتها. لكنه في عاداته ومؤسساته بقي أوروبي الطابع.

لكن هذه الصفة الغامة لطريقته في العيش في شكلها الاجتماعي ذات المخزون العالي، لم تكن لتمنع من أن يأخذ بعض العناصر من جيران الجنوب التي توافق نموه، وإنه دون المعرفة الدقيقة للكتب العربية، سيكون تقويم هذه الأشياء غامضاً وتعسفياً، بل وفي بعض الأحيان ضعيفاً.

ومن جهة أخرى، فإن ذلك التأثير وتلك التجارة المتبادلة لو لم تكن موجودة، فإن ممالك إسبانيا المسيحية التي كان لها اتصال أو حدود عسكرية وسياسية واسعة غير محددة وطبيعية بالمسلمين أكثر من بقية أوروبا؛ فإن الصراعات والتحالفات واشتباك المصالح كانت أكثر أهمية في تاريخنا، خاصة في القرون الأولى للحكم الإسلامي مع المنحدرين من هذا الأصل أكثر من أي دولة أخرى.

ومن هنا يظهر اختلاف الطرق التي تنتهجها دراسات المستشرقين في إسبانيا وخارجها. إن العلماء الأجانب يوجهون اهتمامهم إلى كل أنواع الإنتاج العلمي والأدبي، خاصة في مجالي التاريخ والجغرافيا، فإنهم يهتمون بصفة عامة بالأعمال ذات الصبغة العامة، بينما يركز المهتمون الإسبان بصفة خاصة على ما يمس تاريخ إسبانيا المسلمة. هكذا اهتم (كاسيري) في شروحاته القيمة لفهرس مكتبة الإسكوريال (Catalogo de la Biblioteca Escorialense) .
وقد طبع هذه الخطوة بحس نقدي كبير في تحديث هذه الأبحاث التي كان مصيباً فيها الأستاذ البارز الذي يحمل هذا الكتاب اسمه في صفحته الأولى. وعلى أثره سار مورينو نييتو، وأليكس، ولفوينتي ألكانترا، وسيمونيت. وهذا هو النموذج الذي يجب أن نحتذي به نحن الذين نريد أن نساعد في هذه المحاولة المتميزة.

ولهذا الغرض فإننا بحاجة إلى أعمال من أنواع مختلفة. وما هو أساس هو أن نتوفر على أكبر قدر ممكن من النصوص العربية المطبوعة التي تضع أسرار المكتبات في متناول كل أولئك الذين يجدون في أنفسهم القدرة على فهمها. إن أكبر سرعة في نشر هذه المواد الضرورية تحصل بنشرها دون التأني في ترجمتها، والتي قد تؤخر بطريقة غير مناسبة الاستمتاع بمحتواها. هذا ما قام به كثير من المستشرقين الأجانب، الذين بفضلهم نستطيع أن نقرأ اليوم أعمالاً مهمة كنا نفتقر إليها، كأعمال: ابن عذاري، وابن عبد البر، وعبد الواحد، وياقوت، وابن حوقل والطبري، وغيرهم كثير. وقد اتبع هذا النموذج بمثابرة وباستحقاق الأستاذ (فرنثيسكو كوديرا) بالتعاون مع زميله من سرقسطة وتلميذه القديم (خوليان ريبيرا) في المجلدات العشرة من (المكتبة العربية الإسبانية) Biblioteca Arabico Hispana، التي كانت مفيدة بالنسبة للكثيرين، ومن المؤسف ألا تتابع نتيجة قلة المساعدات المادية. إن الأكاديمية الملكية للتاريخ التي يضع معهدها قوانين أخرى قد بدأت في نشر النصوص العربية مع ترجمتها، وهو ما يفسر التأخير التي هي عليه، كما يجب ألا ننسى التاريخ الوجيز للعصور الأولى من الحكم العربي التي طبعها وترجمها (ماركيس دي غونزاليز).

ومن البديهي أن النصوص العربية وحدها ـ حتى مع أهميتها القصوى والضرورة الملحة والمستعجلة ـ لا تصلح لمجموع القراء والتي لا يمكن ترجمتها إلى الإسبانية في أول محاولة؛ لأننا نفتقر إلى نوع آخر من الأعمال تهتم بالدعاية والإعلام، سواء أكانت ترجمات متفرقة للنصوص كترجمة المغربي الشهيرة التي افتتح بها Gayangos تجديد الدراسات العربية واكتسب بها شهرته الاستشراقية، أم دراسات مبتكرة تعرّف بالكتب العربية، كما فعل (دوزي) في كتاباته المختلفة عن تاريخ إسبانيا.

وإلى هذا تتطلع هذه السلسلة التي نبدؤها اليوم، والتي نقتدي فيها بالسلسلات التي تصدر في الخارج، وهي مفتوحة لكل أولئك الذين يريدون أن يطلعوا الجمهور من المهتمين بالعلم والفن العربيين. وهذه السلسلة تود أن تصبح أداة لنشر ما تخبئه الحروف العربية لأولئك الذين يجهلونها ويودون معرفة معانيها. لكن هذا التطلع يأتي مع مشكلة عويصة تتعلق بكتابة أسماء الأعلام والكلمات العربية بطريقة طبيعية يمكن فهمها، دون تعقيد مقاطع الحروف الداعية إلى النفور. . . إلخ.

إدواردو سأبيدرا

الفصل الأول

اكتشاف المونائيد (Almonacid) رحالة وحجاج

عند هدم منزل قديم ببلدة المونائيد وجدتْ مكتبة موريسكية وأدوات خاصة بعمل لتغليف الكتب مخبأةً بالفتحة والسطام من الفلين الذي يفصل إحدى الغرف.

وقد أُلقي إلى الطريق بكل الأشياء التي عثر عليها، والتي اختلطت برديم ذلك المنزل. وأخذ الأطفال يجدون أوراقاً مهمة ومخطوطات عندما شاء القدر أن يمر من هناك قسيس مشهور من (مدارس التقوى) وهو الأب (فييرو)، ويصل في الوقت المناسب ليتسنى له إنقاذ القسط الأكبر من تلك الأشياء التي رأت النور بعد ظلام دام ثلاثة قرون.

وعندما وصل الخبر إلى العالم الأستاذ بجامعة سرقسطة بابلو خيل أسرع بالذهاب إلى المونائيد، متمكناً بذلك من حفظ غالبية المخطوطات التي عثر عليها، وذلك في مكتبة مدارس التقوى ومكتبته الخاصة. ولا يُعرف بالتحديد كم عدد المخطوطات التي لم يتمكن كل من السيدين فييرو وخيل من العثور عليها، لكن ما وصل إلينا لا يتعدى مجموعه مائة وأربعين مخطوطاً.

إن الأكاديمي المحترم الأستاذ العالم والناشر للدراسات العربية في إسبانيا فرنثيسكو كوديرا كان أول من عرّف بالمخطوطات التي عثر عليها في خطابه الذي ألقاه أمام الأكاديمية الملكية للتاريخ. يقول السيد كوديرا: "في البداية، يجب أن أقول إن المخطوطات المكتشفة، في اعتقادي لم تكن في مكتبة شخص معين، وإنما تمثل مخزناً لكتبي موريسكي خبأ هذه المخطوطات حين طرد

الموريسكيون على أمل العودة إلى القرية مسقط رأسه. واستدل على هذا الطرح بنوعية الكتب التي عُثر عليها وبوجودها في نفس المكان الذي وُجدت فيه أدوات التجليد، كالمكبس والشفرة والمصقلة وحديد قالب العجين التي حصل عليها صديقي السيد خيل.

عندما بلغني خبر الاكتشاف، اعتقدت أن من بين المخطوطات مخطوطات أعجمية، ومن المحتمل أن تكون من العصور المتأخرة للموريسكيين الذين لم يكن من بينهم من يفهم اللغة العربية، أو على الأقل كان كثير منهم لا يعرفونها. وقد صدق الواقع تخميني، فلم تكن فقط بعض تلك المخطوطات أعجمية، بل الجزء الأكبر منها. والقول بأن اللغة العربية كان يجهلها الكثيرون يثبته كون الكثير من هذه المخطوطات كانت تحمل ترجمة إلى الإسبانية بين سطورها.

ونظراً إلى قلة الثقافة عند الموريسكيين في السنوات الأخيرة من وجودهم بإسبانيا، فإنه يمكن أن يستنتج أن مجموعة المخطوطات عند كتبي من قرية صغيرة لا تحتوي على أعمال علمية أو أدبية لكُتاب من الدرجة الأولى، وإنما كانت كتباً تتعلق بالدين والقانون والنحو، والحقيقة أن المخطوطات التي فحصتها تندرج تحت هذه الفصول الثلاثة.

وكما سبق ذكره حينما تحدثنا عن ظروف الاكتشاف، فإن القسط الأوفر من المخطوطات قد اندثر، في حين بات جزء منها في حوزة أحد رهبان مدارس التقوى، بينما الجزء الآخر لدى السيد بابلو خيل، علماً بأن المخطوطات الكاملة منها كانت قليلة نسبياً. ولقد عثرت من بينها على خمسين مخطوطاً يمكن أن تعد كذلك، وإن كانت توجد أجزاء مهمة من المخطوطات الأخرى.

لا يمكنني أن أذكر أو ألخص مائة واثنتين وأربعين ورقة، ولكن يجب عليّ ألا أنسى ذكراً خاصاً لبعضها يمكن أن تكون ذات أهمية كبيرة أو تقدم جديداً.

من بين المخطوطات المكتوبة باللغة العربية يذكر السيد كوديرا مختصراً لكتاب "العين" الذي ينسب إلى الخليل، وكتاباً حول القانون، نسخ عام ٥٣٤ هجرية وقد لخصه عن مجموعة من المؤلفات الفقيه (أبو محمد عبد الله بن عبدالواحد الفهري) وورقة واحدة من مخطوط عن تراجم المسلمين الإسبان، وجزءاً آخر من كتاب تاريخي تحت عنوان: "كتاب انتصارات الأندلس" والمجلد السابع من "ذكر علماء الأمصار" للعالم الشهير (أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ٣٦٨ - ٤٦٣هـ)، ثم مخطوطاً يحتوي على كتاب نحوي ذكره حاجي خليفة، ثم مختصراً من كتاب الغزالي "إحياء علوم الدين"، وقصة "الفرخة والصياد" وبها صور ملونة، وكتيباً صغيراً "الأسئلة والأجوبة" للفرج بن لوبو مفتي الجامع الأكبر بغرناطة، وهي نسخة وضعت في مدرسة حي المسلمين بسرقسطة كتبها (محمد بن إبراهيم بن عبد الله شبطون) من ترويل. ومن المخطوطات الكثيرة التي لا تعطي عناوينها فكرة عن مضمونها، يذكر السيد كوديرا المخطوطات التالية: "هذا كتاب قصة ذو القرنين". ومن يستطيع التنبؤ بالعثور خلف هذا العنوان على فصلين تحت عنوان: "انشقاق السماء" و "النجوم التي تهوي من السماء" أما مخطوط آخر، فيتعلق بشفاء الروح وحب الآخرة وكره الدنيا.

إن غالبية المخطوطات الأعجمية هي كتب عن الصلاة والسنة والأسماء التي وردت في القرآن.

"بالإضافة إلى الكتب المذكورة يقول السيد كوديرا: «توجد بين الأوراق

المكتشفة في بلدة الموناثيد صفحات منفردة ودفاتر مع حواشٍ أعجمية وأبيات شعرية إسبانية بالحرف اللاتيني، وكتاب عن قراءة القرآن بالحرف اللاتيني أيضاً، ورسائل عائلية ورسمية، يقول في إحداها وهي مكتوبة بسرقسطة سنة ٩٠٠ هـ محمد كالافيرا للشخص الموجهة إليه إنه لا يستطيع أن يبعث إليه بما طلب منه ويخبره بأنه قرأ كتاباً لابن سينا».

وأضاف السيد كوديرا: "لم يكن بوسعي فحص كل المخطوطات الكثيرة التي أمكنني رؤيتها بدقة، فقد تكونت لدي القناعة بأنني لم أغفل أهمها، ذلك أنه في أي من هذه المخطوطات التي لا تدل عناوينها على محتواها يمكن أن توجد أخبار مهمة". وهذا ربما حصل مع المخطوط الذي يحمل عنوان: "أناشيد الحاج دي بوي مونثون". لقد بدا كتاباً قليل الأهمية داخل مخطوط أكبر حجماً، وقد كان من الضروري قراءته كاملاً للعثور على هذه الأناشيد المهمة، موضوع هذا الكتاب.

لقد كان من الصعب جداً الوصف الدقيق لرحلة إلى مكة؛ ذلك أن دخول الأماكن الإسلامية المقدسة كان محرماً على المسيحيين، فقد كانوا قلة أولئك الذين غامروا بصحتهم وحياتهم لكي يكتشفوا الأسرار التي تحيط بتاريخ الحج عند المسلمين.

يقول مؤرخ فرنسي: إن أول أوروبي استطاع أن يزور مكة وينشر وصفاً عينياً لمناسك الحج هو الرحالة بوركهارت (Burckhardt) الذي قام برحلته ومغامرته الخطيرة متخفياً سنة ١٨١٦م [1]. وقبله بسنوات تمكن جاسوس إسباني بحكومة كارلوس الرابع من الدخول إلى الديار المقدسة، وادعى أنه أمير مسلم من

(١) بوركهارت، رحلات في الجزيرة العربية.

الغرب. كان يسمى دومنغو باديا، واتخذ اسماً عربياً هو علي بك العباسي، ويعد وصفه من أهم ما يمكن تصوره. وبعد تجواله في الإمبراطورية المغربية ودول الساحل المتوسطي حتى القاهرة بدأ رحلة الحج، وقد اختبره شريف مكة، ولكنه نجح في ذلك لمعرفته الدقيقة باللغة العربية.

كما قام بعد ذلك أيضاً دبلوماسي ومستشرق فرنسي هو صهر عبد القادر (ليون روشى) بالحج إلى مكة في الفترة التي اعتنق فيها الإسلام، وقام بمهمة سرية للحكومة الفرنسية.

وبعد سنوات كثيرة من رحلة (ليون روشى) تمكن الرحالة (فون مالتزان) و(بورتون) و(كين) من دخول مكة أثناء الحج، لكن وصفهم كان قليل الأهمية. وهذه الرحلات هي الوثائق الوحيدة التي كانت لدى الأوروبيين حول الوصف الدقيق لشبه الجزيرة العربية حتى سنة ١٨٩٠م.

وفي هذه الفترة زار مكة الدكتور الهولندي (سنوك هيروغرونيه) ومعه آلة تصوير عصرية، فنشر ـ بالإضافة إلى مجلدين مهمين ـ صوراً جميلة جداً. وبفضل هذا يمكن أن نعرف اليوم أرض الإسلام المقدسة حتى في جزيآتها دون أن نبرح مكاننا.

بل حتى بعد الدكتور (سنوك)، فقد صدرت للرحالة (جرفي كورتلون)، والدكتور صالح صبحي ـ وهو مسلم ـ انطباعات عن رحلتهما إلى مكة.

هذه هي مجمل الكتب التي كانت في متناول الجغرافي ومحب الكتاب حتى الآن لدراسة إحدى المظاهر الأكثر بروزاً عند المسلمين، ألا وهي الحج إلى مكة.

واليوم ومع نشر هذا الكتيب، فإنه يمكن أن نضيف إلى هذه القائمة وصفاً لرحلة قام بها مسلم حقيقي في القرن السادس عشر، أو بداية السابع عشر. إنه

وصف يرقى إلى مستوى القصيدة، ذلك أن الراوي ـ كما يقول الموريسكيون ـ بالإضافة إلى كونه ملاحظاً أميناً، فإن لديه مهارة الشاعر، فهو يندفع حماسة لما يراه من معجزات إيمانه، وبلغة تكاد تكون عامية، ووزن يكاد يكون صحيحاً، مما يجعله يثير اهتمام القارئ، إذ يقدم له تفاصيل عن الرحلة تبرز فيها الدقة والإيمان الصادق، ثم إن ملاحظاتها كلها أكدها الرحالون المعاصرون.

والمهمة التي قام بها واضع هذا الكتيب هي فك وتبسيط المعلومات المقدمة من طرف كاتب المخطوط التي يشير إليها فقط بكلمة أو بيت واحد. وهكذا فإن قراءته ستكون سهلة، لأننا سنسلط الإيضاحات التاريخية والجغرافية على هذا الوصف.

إن لأناشيد بوي مونثون الفضل على الأخبار والأوصاف التي ظهرت في الكتب المعاصرة المشار إليها، لأنها رحلة تمت في عصر متقدم، وتضم وصفاً متميزاً قدمه رجل مسلم. ولكونه من (أراغون) فإنه يضيف بعمله هذا معلومات قيمة عن التاريخ والأدب الأراغونيين.

الفصل الثاني

وادي ثينكا - منثون

الموريسكي بوي مونثون

على بعد ستة كيلو مترات جنوب الحاضرة القديمة التي يطلق عليها اليوم مدينة (مونثون) الشهيرة ببلاطاتها، وباتجاه وادي ثينكا تاركين إلى الشمال معبد القديسة (Alegria) توجد قرية بوي دي سانتا كروث الواقعة في سفح هضبة عالية.

ليس هناك مكان أجمل من هذا الموقع في كل وادي ثينكا، فهو عبارة عن بساط من النبات الوافر على جنبات الوادي الغزير، وأشجار الزيتون الكثيفة، وصفوف أشجار الحور الفضية بجوار السواقي، وأشجار الفواكه تحول تلك الجهة إلى واحة خلابة.

إنها قرية بها مبانٍ متواضعة، وكنيسة جديدة ذات صومعة رشيقة، ولكنها قرية مرحة حيث كل شيءٍ يبتسم، وحيث الماء الزلال ينساب في كل اتجاه، والجو الرطب للوادي يصل معطراً برائحة الورود.

وقد أطلق أيضاً على هذه القرية اسم "بوي دي موروس" (يعني بوي المسلمين). وهذه التسمية لها مسوِّغها التاريخي. فقد كان يسكنها صناع موريسكيون قدموا الدليل على صحة المقولة: "الربح الكثير مع كثرة المسلمين". وقد استمر هذا الوضع حتى القرن السابع عشر في كل القرى التي كانوا ينتشرون بها. ولم يكونوا بالعدد القليل على ضفاف نهر ثينكا. ومن بين هذه القرى نذكر بلدة (Alfantega) التي تبعد كيلو مترين فقط، كما توجد

أسفلها بلدة Albalate وبلدة Alcolea التي يصافح بعضها بعضاً عبر مجرى الوادي. وهناك (Almudafar) وهو اسم يذكرنا بانتصار أحد الأمراء، وكذلك بلدة (Zaidin) التي مازالت تحافظ على طابع قرية إسلامية، وهي أسماء كلها عربية الأصل.

وفي الضفة الأخرى للوادي وقبالة (بوي) توجد قرية (Conchel) المسيحية التي كانت تابعة لسلطة أسقف بلدة (Lerida) ولازالت تحتفظ ببرجها الرشيق الذي كان يستخدم دون شك للمراقبة المستمرة، خوفاً من غارات القرى المجاورة. واليوم لا نكاد نفهم حالة القلق والمعارك التي عاشها أولئك الناس لاختلافاتهم ومنافساتهم التي كان يعمقها عدم التوافق الديني، والتي منحت المجال لكل أنواع الكراهية والحقد.

وهكذا وفي سنة ١٥٩١م وقبل بضع سنوات من صدور قرار فيليبي الثالث، الذي يقضي بالطرد العام، فإن الظروف حتمت إعلان أوامر فظيعة ضد الموريسكيين أهالي بلدة بوي، الذين كانوا ـ دون شك ـ أكثر تزمتاً في المنطقة كلها.

وكان يعيش بينهم في القرن السادس عشر ـ بكل تأكيد ـ هذا الحاج الشجاع، الذي شاءت الظروف أن يعثر صديقنا العالم الأستاذ بجامعة سرقسطة السيد بابلو خيل على أناشيده ويقدمها للناس.

الفصل الثالث

القرآن والحج - الحاج بوي مونثون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا...﴾ [البقرة: ١٥٨].

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ...﴾ [البقرة: ١٩٧].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً...﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

هذه هي الآيات التي يحث فيها القرآن المسلمين على فريضة الحج، بل إن سورة الحج تتحدث عن المناسك التي يجب على الحجاج القيام بها. وبهذه الأحكام نظم القرآن زيارات العرب القديمة إلى الكعبة أو بيت المقدس. وعليها تقوم هذه الحركة الهائلة للمسلمين الذين يأتون في حشود كبيرة من الجزيرة، غير مبالين بصعوبة الطقس، ولا بالمتاعب المتنوعة التي تكون سبباً في العديد من الوفيات.

يلبس الحجاج لباس الإحرام، ويكشفون رؤوسهم، ويعرضونها لأشعة شمس محرقة. كما يزهدون في الأكل، لأن الصيد محرم عليهم، ويتعرضون للهجوم

والسرقة من طرف قبائل الصحراء الشرسـة، وبما أن الشهور العربية قمرية، فإن الرحلة ـ حسبما يتفق ـ قد تأتي في فصل الشتاء أو الصيف.

وبالإضـافة إلى طقس شـبه الجـزيرة العربيـة القاسي هنـاك أسبـاب أخرى للهلاك، وهي الصوم المتكرر وشرب القهوة.

وفي عصور الإسلام الزاهرة كانت تتجمع قـوافل ضخمة عبارة عن جيوش حقيـقية يقودها رؤسـاؤها ومعهم في بعض الأحيـان قطع من الأسلحة. وفي عصرنا تنظم ست أو سـبع حملات، أهمها تلك التي تـنظم بدمشق ويقودها أحد الباشوات، وحملة مصـر التي يقودها باي يطلق عليه اسم أمير الحج. ثم حملة المسلمين البـرابرة التي تنضم إلى حملة دمشق قـبل أيام من الوصول إلى مكة، وكذلك حمـلة بلاد فارس التي تنطلق من بغداد، وحمـلات بلاد عمان واليمن. هذا بالإضـافة إلى أعداد الحـجاج القادمين من الهند وجـاوة وجزيرة سومطرة والسودان، ومن ساحل أفريقية الجنوبي.

إن الحملة المصرية السنوية قـديمة جداً، فقد شارك فـيها واضع هذا المخطوط منذ ثلاثة قـرون، وقد أبحـر من بلنسـية، وزار تونس والإسكندرية والقـاهرة وصولاً إلى مكة، واسـتطاع العودة وكتـابة مذكراته عن الحج وتعـميمـها على الموريسكيين، إننا نجهل الاسم الحقيقي لهذا الحاج الذي اتخذ اسماً مستعاراً هو الحاج (بوي مونثون).

الفصل الرابع

الأدب الموريسكي - أناشيد بوي مونثون

إن ما نسميه أعجمياً هو بالنسبة إلى الأدب كالأسلوب المدجن بالنسبة إلى الفن. وهو نتيجة للحضارتين اللتين ـ بعد أن تحاربتا قروناً وقروناً لكي تحصل كل واحدة منهما على التفوق ـ تداخلت كل منهما في الأخرى في النهاية، وأخذت الواحدة عن الأخرى أشياء لا يرفضها ولا يمنعها قانون كل واحدة منهما.

إن الأعجمية تتمكن من لغة المسيحيين، وتلبسها لباس المسلمين. والشيء نفسه حصل للفن المدجن الذي ساعد في تكوين المعمار المسيحي، وملأه بروائع زُخرفه وعناصره التجميلية.

إن المسيطر ينتج جوهر الأشياء، ويكتفي المنهزم بإعطاء الشكل والزخرف الخارجي، وكلاهما يتكاملان بصورة عجيبة، وينتجان في الأدب ـ كما في الفنون الجميلة ـ إبداعات وتصورات أصيلة وجديدة.

ولم يصل الأدب المدجن إلى المستوى الذي وصل إليه الفن الذي يسمى بالأعجمي والتاريخ يفسر ذلك؛ فقد كان عماد الأدب المدجن العنصر الإسلامي الذي كان قد أوشك على الاندثار، أما الفن، فعلى العكس من ذلك، قد عاش سنوات عدة يغذيه العنصر المسيحي والأهالي.

وهكذا فإن الاتجاهين اللذين أحدثهما تقارب الأفكار قد أعطيا نتيجة معاكسة؛ فقد أنتج الأول مآثر تدعو إلى الإعجاب كبرج سرقسطة الجديد، أما الثاني فلم ينتج سوى بعض الأعمال "كقصيدة يوسف"، و"قصة الملك ألكسندر"، و"أناشيد الحاج بوي مونثون".

يبلغ عدد مقاطع القصيدة تسعة وسبعين مقطعاً، تشكل قصيدة وصفية مهمة ليس لقيمتها الأدبية فحسب، ولكن لبساطتها وعبقريتها، وللحماسة التي تدفع الحاج إلى تقديم صور وأخبار من كل صنف، وأيضاً لأنها تنتمي إلى جنس أدبي لم يُدرس عندنا بعد.

والمقاطع من ثمانية أبيات ذات أوزان تلتزم أحياناً بالقافية، فيقفى البيت الأول مع الرابع، والخامس مع الثامن، والثاني مع الثالث، والسادس مع السابع، ولكن بحرية كبيرة بحيث نجد أن بعض الأبيات تتكون من خمسة مقاطع إلى ثمانية، وبعض الأناشيد تتغير فيها تراكيب الأبيات كثيراً.

أما الأسلوب، فإنه راقٍ في بعض الأحيان، كما أن الوصف حي يتميز بالحركة. ومع أن بعض المقاطع الشعرية تفتقد الوزن، فإنه يمكن عزو ذلك إلى الذين نقلوا النص، لأن الكاتب كان يعرف الأوزان، بل كان يستعمل بعض الجمل الرنانة.

ومجمل القول، فإن مجموع الأناشيد تقدم نموذجاً جيداً عن الأدب الشعبي الموريسكي الذي برع فيه خوان ألفونسو، ومحمد ربضان، وكلاهما من أراغون، وكان هذا الأخير يكتب في مطلع القرن السابع عشر.

وككل الكتّاب المدجنين، فإن حاجنا هذا يكتب بالعربية تلك الكلمات المتعلقة بالمناسك والأمور الدينية. فهو يستعمل كلمات : الدين والحج، والبركة والأنبياء، والجنة والصلاة، والتسبيح وباب السلام بالعربية بدل الألفاظ التي توافقها بالإسبانية.

وباستثناء هذه الكلمات وأسماء الأماكن والأشخاص التاريخية التي يوردها بالأصل العربي، فإن قراءة الأناشيد سهلة وميسرة، لأن لغتها تقترب كثيراً من

لغتنا اليوم، مما يجعلنا نفهم كيف أن الأدب العربي قد بدأ يذوب تدريجياً في نار الأدب القشتالي.

ثم إننا نجد كثيراً من الكلمات الإسبانية قد حافظت على معناها وشكلها القديمين.

لا يمكن أن ننفي وجود شبه كبير بين مؤلف (أغنية الأمطار) لمحمد ربضان وأناشيد بوي مونثون، وإن كان المؤلف الأول يحمل في صفحاته تطلعات أدبية أكبر.

وهذا ما يجعلنا نخمن بأن صاحبنا قام برحلته في النصف الثاني من القرن السادس عشر، أو على الأرجح في بداية القرن السابع عشر، عندما كان الموريسكيون يُدفعون إلى التنصر بطريقة مخجلة.

إن التعامل المستمر مع المسيحيين، بالإضافة إلى تفوق هؤلاء وجهودهم من أجل هدم آخر معاقل الإسلام قد أعطى بعض التقارب في الأفكار، فعندما يسيطر شعب على آخر ينتهي بامتصاصه، فارضاً عليه لغته وقوانينه وعاداته.

الفصل الخامس

التاريخ المحتمل لرحلة بوي مونثون

لا يمكننا أن نختم هذه التعليقات عن الرحلة إلى مكة لهذا الموريسكي الشهير دون أن نقدر التـاريخ المحتمل لقيـامه بها، ولن يكون العـمل مكتمـلاً إذا لم نُعـــر هذه القضية الاهتمام الكافي.

ففي أناشيد بوي مـونثون، نجد ـ كما هو طبيعي ـ ميـول العصر الذي عاش فيـه الرجل واتجاهاته، إذ هو ككل عمل إنسانـي على صلة قوية بالوسط الذي يحيط به.

إن الوضع الاجتماعي للشعب الأراغوني، والعناصر البارزة للأدب الإسباني، ولغة المنطقة التي ظهـر فيها، بالإضافة إلى الجمل والعـبارات الاصطلاحية التي كانت في صـراع دائم؛ حيث كانت لها ثلاثـة روافد: القشتـالية والبرفانسـالية والعربية، وهناك سهولة المواصلات التي تظهر من خلال هذه الرحلة عبر بلدان عربية، ووضعية هذه البلدان؛ كل هذا مـهم، ويمكن من خلاله استنتاج عناصر جديدة سواء بالنسبة إلى التاريخ الأراغوني أم بالنسبة إلى البلدان الشرقية.

فهل تقـدم ما أطلقنا عليها دائمـاً (أناشيد بوي مونثـون) معلومات كـافية، نستطيع معها أن نقدر على وجه التقريب العصر الذي كتبت فيه؟

هذا ما سنراه باختـصار، وستكون بعض الـدول في هذا البحث هي دليلنا، لأنها كانت محكومة بالشرع الإسلامي حين قام الموريسكي برحلته المهمة.

في البداية كانت إمبراطورية القـسطنطينية تحت سيطرة الأتراك منذ أن أكمل الغزو مـحمد الثـاني سنة ١٤٥٥م، وبهذا سيكون لدينـا تحديد زمني يجب أن

يدور حوله حسابنا. وهذا المجال يمكن أن يضيق أكثر إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن من بين الممالك التي أشار إليها بوي مونثون، والتي تنتهج المذهب المالكي لا يوجد ذكر لمملكة غرناطة التي استردها الملوك الكاثوليك سنة ١٤٩٢، وإذن فإن الأناشيد الشهيرة هذه متأخرة دون شك عن هذا التاريخ.

ومن جهة أخرى، عندما تحدث النشيد الثاني والسبعون عن قبر الإمام مالك، الذي يسميه (إمامنا) مضيفاً: "هنا في كل الغرب الإسلامي نتخذه إماماً أكبر"، يتضح جلياً أن بوي مونثون كتب مذكراته في الوقت الذي لم تعد فيه أي جهة من جهات شبه الجزيرة الإيبيرية مسلمة رسمياً، وعلى العكس من ذلك، فإنه لا يزال بعض الناس في أراغون يدينون بالدين الإسلامي بصفة علنية.

وقد حدث هذا طوال القرن السادس عشر وبداية السابع عشر، لأن الطرد النهائي للموريسكيين الإسبان لم يتم إلا في سنة ١٦٠٩م.

إن سنتي ١٤٩٢م و ١٦٠٩م تشيران إلى بداية الخط الذي يجب أن نحصر فيه تقديرنا ونهايته.

ويمكن أن نجزم أن الحاج قام برحلته بعد مضي النصف الأول من قرننا الذهبي، ثم إن طابع النشيد وازدهار القاهرة "الوضاحة والمضاءة بالليل كما بالنهار" وزيارة (الغورية) أو مسجد (الغوري) المشيد بالضبط في النصف الأول من القرن السادس عشر كل هذا يؤكد ما ذهبنا إليه.

ثم إن هناك أشياء أخرى يمكن أن نقدمها في تقديرنا للعصر الذي كتبت فيه هذه الأناشيد؛ من المعلوم أن الشهور العربية قمرية أما شهورنا فشمسية. ولذلك فإن الشهور العربية أقصر من شهورنا، وقد يتراوح التفاوت بين عشرة أيام واثني عشر يوماً. وهكذا فإننا في ظرف ثلاثين سنة يجب أن نعُد سنة

أقل، وهكذا نجد الظاهرة العجيبة بالنسبة إلينا في كون الشهور العربية لا علاقة لها بفصول السنة. فمثلاً يأتي عندنا شهر يناير دائماً في فصل الشتاء، ويأتي شهر يوليو في الصيف، ولكن هذا لا يحدث عند العرب. فإذا وافق شهر رمضان مرة في الشتاء، فإنه يصادف فصل الربيع بعد ثماني سنوات، وبعد ثمانٍ أخرى يأتي في فصل الصيف، وبعدها في الخريف. . . وهكذا.

وفي أناشيد بوي مونثون نجد الإشارة إلى تاريخ محدد، وهو اليوم الثاني من ميلاد المسيح، عند خروجه من تونس، كما نعرف أيضاً أن وصوله إلى الإسكندرية تم في اليوم الثامن عشر، يعني أنه وصل يوم ١٢ يناير.

لم يكن من الممكن إذ ذاك تحديد الأسفار بدقة كما هو عليه الحال اليوم، وبالنسبة إلى رحالتنا فيجب أن نأخذ بعين الاعتبار أخطار الملاحة والتأخيرات، ثم إن الوقت لا يمكن تحديده، مما قد يضيع على الحاج سفره، ومن كل هذا يمكن أن نستنتج أنه وصل إلى القاهرة ولديه وقت كافٍ لزيارة المدينة وضواحيها بهدوء، وهي المدينة التي قدم عنها الكثير من المعلومات في أناشيده، ووصفها وصفاً دقيقاً، ونعتقد أنه أمضى بها شهراً، وهو اعتقاد في محله، وأنه بدأ رحلته إلى مكة في أواسط فبراير.

وبعد شهرين من المشي عبر الحجاز تصل القافلة في أواسط أبريل؛ إذ: "كانت الرمال حية"، فإذن قد بدأ الحر، وهذا ما يؤكد افتراضنا.

وشعائر الحج أقيمت إذن في النصف الثاني من هذا الشهر، أما عيد الأضحى فقد وافق أواخر شهر أبريل. ومن المعلوم أن عيد الأضحى يقام دائماً في اليوم العاشر من ذي الحجة، وعليه فإن رحلة بوي مونثون كانت في العاشر من ذي الحجة، الذي يوافق أواخر شهر أبريل. ففي أية سنة حصل هذا التوافق

في النصف الثاني من القرن السادس عشر؟ لقد كان ذلك سنة ١٥٧٢م، وتكررت الظاهرة قرابة سنة ١٦٠٣م. وهذه السنة الأخيرة هي المحتملة لما نستخلصه من النشيد الثلاثين. إذ يقدر بوي مونثون لشجرة (العائلة المقدسة) أكثر من سبعمائة سنة من الوجود. لقد كان الموريسكي يعدُّ حسب السنوات الميلادية، بل إنه شيء غريب أن يكون العدد تاماً. على ماذا اعتمد إذن لكي يعطي هذا التاريخ؟ اعتمد دون شك على السنوات التي مرت على ميلاد السيد المسيح عليه السلام، أو أنه قدر للشجرة قرناً، أو أن الرقم المكتوب في المخطوط به خطأ في النقل. وهذا هو الراجح، ذلك أن وزن البيت يستقيم بألف وستمائة عوضاً عن ألف وسبعمائة، وبما أن البيت موزون بعناية فهذا أقرب إلى الصواب. وهكذا فإن رحلة بوي مونثون قد تمت حوالي سنة ١٦٠٣م، وذلك ما تؤكده كل ظروف الزمان والمكان التي تحيط بالمخطوط.

وهذا ما يمكن من تفسير وجود الإنارة العامة، وزيارة مسجد الغوري الذي كانت زخارفه حديثة، وهي التي أذكت حماسة الحاج بوي مونثون. كما نفهم أيضاً الإشارة المتعلقة بكلكوتا المدينة التي أُسست في تلك الفترة. وهذا أيضاً مما يفسر تاريخ شجرة هليوبوليس الشهيرة. وهكذا نفهم السبب الذي جعل بوي مونثون لا يذكر في القسم الجغرافي من الكتاب أي منطقة من شبه الجزيرة الإيبيرية، ومن ثم ندرك قبول اتساع رقعة الإسلام التي يذكرها.

الفصل السادس

أناشيد بوي مونثون

من بين المخطوطات العربيـة التي قلنا إنه كان للسيد بابلو خـيل حظ العثور عليها من بين ما اكتـشف في المونائيد مخطوط يحمل رقم ١٣ وهو الذي يضم أناشيد الحاج بوي مونثون. وقد نشر بعضها السادة ريبيرا، وخيل، وسانشيز في مجموعـة "النصوص الأعجمية"، كمـا نقلها إلى الإسبانية وترجمـها الأستاذ بابلو خيل، وذلك في مـجلة "الأرشيفو" التي يصدرها ويـديرها السيد روكي شاباس.

يقع المجلد الأصلي في قرابة مائتي صـفحة، طوله ٢٥×١٨سم، وله غلاف من الجلد بنقوش أنيقة بمسـامير نحاسية، وبقايا شـريط كان مربوطاً به. ومازال محتفظاً بالعنوان اللاتيني ـ ذي السمات القوطية ـ على غلافه الجميل الذي جلد في وقت سابق. وقد يكون كتاباً مسيحياً أتلفه أحد الموريسكيين واستعمل غلافه لتحفظ فـيه بعض الكتابات الإسلامـية، ومن بينها حبك الكتـيب الذي يحوي هذه الأناشـيد الـشهـيـرة. يتكون المخطوط من ثلاث وعـشريـن ورقة طولهـا ١٥×٢٠سم، وقد اندثرت الورقـتان الأوليان منه، إذ أصبـح من الصعب ملء ثغراتها.

ولذلك فإن جزءاً من العنوان والنشيد الأول غير كاملين، كما أننا وجدنا بيتاً واحداً فقط في النشيد الثالث، وأكثـر من بيت في الخامس، كما لم نجد البيتين الأولين للمقطع السادس.

ولحسن الحظ، فإن باقي المخطوط لم يفقد منه أي بيت كما سنرى.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه أناشيد الحاج بوي مونثون

النشيد الأول:

.... مكان

.... ثون

.... للذهاب إلى بيت

.... يحصل على المغفرة

.... إنها حقيقة

أن نتمكن ....

بيت مكة المقدس

النشيد الثاني:

إذا كنت قد خرجت مبتهجاً

تاركاً جميع أهلي

للذهاب إلى أرض الإسلام

وأداء مناسك الحج

الذي هو الركن الأساس

لأن من يقوم به

تمحى عنه كل الذنوب

النشيد الثالث:

وإن كان خروجـــــــي

. . . .

. . . .

النشيد الرابع:

بمجرد وصولي إلى بلنسية

لم أُرد أن أتأخر أكثر

فقمت بإعداد الإجراءات

وترتيب أموري

سددت للإدارة العامة

كل الواجبات وأيضاً

لصاحب السفينة

الذي هو من مواليد البندقية

النشيد الخامس:

. . . .   السرور

. . . .   اليوم المشهود

إلى ما وراء تونس

. . . .

النشيد السادس:

كان بها مائة وستون ألف منزل

فهي مدينة ذات شأن

مدينة ذات ثراء

بها الخيل والشرفاء

وكثير من الأشياء

لا يمكن عدُّها.

النشيد السابع:

إنها مدينة بهيجة

بالنسبة لمرتاح البال

أما من له مشاغل

فلا شيء يريحه ويسُره

ولشوقنا المتلهف

اتفقنا على الرحيل

وخرجنا لقضاء الليل

في الضاحية

النشيد الثامن:

في اليوم الثاني من ميلاد المسيح

سرنا في تلك الوديان

تارة في اليابسة

وأخرى في البحر

عبر الحواضر والمدن

وأخطار البحر المظلمة

إلى أن وصلنا إلى جربة

تلك الجزيرة ذات الخضرة الكثيرة

النشيد التاسع:

ومن تونس إلى الحمامات

ثم إلى هرقلة

فسوسة والمنستير

ومدينة المهدية

وأبحرنا في هذا الاتجاه

ثلاثة أيام دون طعام

إلى أن وصلنا خليج سرت

حيث ظننا أننا تهنا.

النشيد العاشر:

عندما وصلنا إلى صفاقس

والجوع قد نال منا

والإبحار قد أنهكنا

وسوء الحظ عذبنا

لم نجد لمواساة آلامنا

لقمة خبز

نشتريها

أو يُتصدق علينا بها.

النشيد الحادي عشر:

وأنا سائر مع رفيقي

تكبر أحزاننا

نتحدث عن مأساتنا

التقينا رجلاً أجنبياً

فقادنا إلى حظيرة

بها ماشية كثيرة

اشترينا منه كبشاً

بسبعة (نصرية)[1].

النشيد الثاني عشر:

وضعنا الكبْش في قدر

دون ماءٍ ولا توابل

ولا أي شيءٍ آخر

طبخناه هكذا

ودون خبز أكلناه.

النشيد الثالث عشر:

ومن هناك توجهنا إلى المحرس

مدينة جميلة

لم نتوقف فيها

ولكننا بتنا ليلتنا في المرسى

(١) دخل سك النقود المربعة ـ ولا سيما الفضية ـ مع الفتح العربي لإسبانيا من طرف الوحدين، لأن النقود الذهبية ظلت مستديرة، وإن كانت تحمل الكتابة في مربع في الدائرة التي تشكلها النقود. وكان بنو نصر في غرناطة آخر من حافظ على الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة واتبعوا نفس الطريقة في سك النقود، وإلى هذا النوع من النقود يشير بوي مونثون، وهو ما يؤكد أن نقود بني نصر كانت متداولة أثناء سفره.

وكدنا نتيه

انزعج رئيس المركب

ووصلنا إلى جربة

مرسى السوق عندهم.

النشيد الرابع عشر:

الجزيرة جميلة جداً

وبها الكثير من أشجار الفواكه

فيها التفاح والمشمش والكمثرى

وكثير من العنب والتين

وأشجار النخيل

ذات التمر اللذيذ

إنها جزيرة جميلة

وإن كانت مليئة بالرمال.

تحكي هذه المقاطع الأربعة عشر عن بداية الرحلة حتى وصول المركب إلى جربة. لا يوجد ترتيب في الكلام، ومن المشكوك فيه أن يتحدث النشيدان الرابع والسابع عن بلنسية أو عن تونس، كما أن جزيرة جربة التي يشار إليها في النشيد الثامن هي الجزيرة نفسها المذكورة في النشيد الثالث عشر.

وأميل إلى الاعتقاد أن المذكورة في النشيدين السادس والسابع تتعلق بتونس، وأن النشيد الثامن الجميل ليس إلا ملخصاً للرحلة حتى جربة التي كانت تسمى سابقاً Meninx، أو جزيرة آكلي اللوطس (Lotofagos).

يعود الشاعر بعد ذلك إلى تونس، التي لا يقول عنها شيئاً مادام أنه قد أشار

إليهـا سابقـاً، ويصف الرحلة بدقة، ذاكراً فـي النشيد التـاسع عاصـفة خليج سرت، والتي لا يصفهـا حتى النشيد الرابع عشر، وهذا مـا يجعلنا نلحظ عدم الترتيب في الكلام، وعـلى كل حال فإن حـاجّنا خرج "من بيتـه وكل العائلة فخورة به".

وفي بلنسية يركب سـفينة من البندقية يقودها الرايس السبـتي، يسدد ضريبة المرور أو الإركاب، ويركب البـحر لنجده في تونس، هـذه المدينة التي قال عن "ثرائها وخيولها وأشرافها": إنها لا تعد. يخرج من تونس دون أن يذكر حملة كارلوس الخامس، ويتوقف تباعاً في بلدة الحـمامات، هذه المدينة التجارية التي يسكنها عشرة آلاف نسـمة، وبها مرسى كثير الحـركة، ثم هرقلة وسوسة ذات المساجد الرائـعة، والمنستير، وكلهـا توجد في الخليج المسمى بالحـمامات، كل ذلك يعني أنها كانت أيامـاً قليلة، وكانت السفينة تمر قرب السـواحل، لتحمل الركاب والبضائع.

يتوقف أيضاً بالمـهدية ـ مدينة (Thapsus) التاريخيـة ـ التي توجد في رأس أفريقيـة، والتي أسسها سنة ٩٠٠م أحد الخلفـاء الفاطميين، وهو المرسى الذي كانت تقصده كثير من البواخر المسيحية في ذلك الوقت.

ويصل بعد ذلك إلى صـفاقس الأكـثر جمالاً الـيوم من بين المدن التونسـية "يتضورون جـوعاً منهكين من الإبحار". لقد عانوا الجـوع إلى أن عثروا على قطيع، فاشتـروا كبشاً بسـبعة نصرية، وبعد قـضاء حاجتهـم أبحروا من جديد حتى المحرس، هذه القرية الجميلة، وبمرفئها باتوا ليلتهم.

وفي اليوم التالي ـ وقد أصابت قائد السفينة وعكة صحية ـ وصلوا إلى جربة وسوقها المفضل، "إنها جزيرة ذات خضرة كـثيرة"، كما يقول الشاعر عنها في

النشيد الثامن، ثم أضاف "وبها كثير من أشجار الفواكه".

ولقد شدت فواكهها المتميزة أصحاب (Ulises) وإن كانت اللوتس التي أشار إليهـا، يعني (هوميـروس) قد اندثرت، فإنهـا ظلت مكسوة بالنخـيل والبلوط والتين وأشجار أخرى.

وقـد تمكن الرحـالة من مشـاهدة قـوس النصـر الذي أقيم لأنطـونيو بيـو ولوثيوفيرو في وسط الجزيرة، ولكننا لا نعرف هل مازال موجوداً؟ أثر آخر أقل قيمة كان قائماً حتى بضع سنوات، ويراوح طوله بين ثمانية أمتار وتسعة، وهو مكون من جماجم الإسبان الذين ماتوا في معـركة نظمها دوق مديناثيلى (مدينة سالم)، وأندريس دوريا سنة ١٥٥٨م ضد الجيش العـثماني، وسكان جربة هم مسلمون يزاولون الصناعات: خاصة صناعة الصوف والحرير.

النشيد الخامس عشر:

خرجنا نحن الحجاج

من جربة فرحين

مع كثير من التجار

قاصدين الإسكندرية

ونحن نبحر في اتجاهها

في أعالي البحر الهائج

صادفتنا عاصفة قوية

إنه أمر مخيف.

النشيد السادس عشر:

عندما أبحرنا

في خليج سرت

كنا مطمئنين

لكن العاصفة اشتدت

وهاجت الريح في البحر

فأخذ القائد يصيح

بإفراغ المركب

أملاً في النجاة.

النشيد السابع عشر:

كانت هناك ريح عاتية

سرعة كبيرة

في إفراغ المركب

دون أن نعبأ بالبضائع

ولا بالمؤونة

وقد أُلقيت إلى البحر

أشياء ثمينة للتجار

وكذلك بعض زاد الحجاج.

النشيد الثامن عشر:

شاء المولى العلي

الملك القدير أن ينجينا

فكل شيءٍ ملكه

إذ أمر البحر أن يسكن

فتضرعنا إليه

وشكرنا بكل خشوع

عظمته وجلاله

على مشيئته بإنقاذنا.

النشيد التاسع عشر:

وبعد ما جاوزنا سرت

ومرَّ الهلع والخطر

بقي لنا همٌّ آخر

وإن كان أقل ضرراً

حيث كدنا نظل

بلا مؤونة

إذ ألقي بها في البحر

خوفاً على المركب.

النشيد العشرون:

نادى الرئيس السبتي

أحد أبناء عمه

ماسكاً إياه بيده

وأخذ منه قسماً

أن يأتمنه على المؤونة

وأن يوزع

الخبز والماء بعدالة

وأن يؤتي منها الصغير والكبير.

النشيد الحادي والعشرون:

لقد أغاثونا في الحقيقة

ولم يتركونا نمس بسوء

خلال كل المدة

التي قضيناها في البحر

وشاء الله ومدنا بعونه

ووصلنا إلى مرفأ

بمملكة طبرقة

بفضل منه وبركة.

النشيد الثاني والعشرون:

كان العرب

يأتون رجالاً

وبعضهم ركباناً

على خيولهم

رافعين أيديهم إلى السماء

تحية السلام

فخرج الرايس السبتي

والكاتب عبد الرحمن.

النشيد الثالث والعشرون:

وفي صباح اليوم التالي

جلبوا مؤونة كبيرة

من زبدة ولبن

وماشية كثيرة

اشتروا خرفاناً سمينة

كالعجول

وبهذا كله

مونوا السفينة.

النشيد الرابع والعشرون:

نزلنا في اليوم
الثامن عشر
في مرسى الإسكندرية
ومن هناك توجهنا
إلى القاهرة الشهيرة
العظيمة والكبيرة
التي يعجز
عنها الوصف.

هكذا أبحرت السفينة الممتلئة بالتجار والحجاج وبحمولة كبيرة من جربة، مغامرة في أعالي البحار باتجاه خليج سرت الخطير، المسمى آنذاك دون شك بخليج (Fortuna). وهذه التسمية يمكن أن تدلنا على الاقتراب من دولة (Auchelah). وقد يعود أصلها إلى التسمية البربرية (Auchala) التي تعني (Fortuna) وكان مشهوراً في القدم بخليج سرت. ففي عصور ما قبل التاريخ كان خطراً على الأبطال الإغريق الذين أبحروا على ظهر المركبة (أرغوس)، وقد وصف أخطاره Horacio، و Virgilio، و Seneca، و Propercio، وLucano و Flacio وغيرهم من الشعراء الإغريق والرومان، وأثاروا انتباه البحارة إلى ذلك الجزء من البحر المتوسط. وقد وصف Polisio و Salustio الشهير كوارث عديدة وقعت في هذا البحر. إن العاصفة التي عانى منها رحالتنا كانت مروعة، والمقاطع التي تصفها هي الأكثر تعبيراً في الأناشيد كلها، لقد كادت السفينة تغرق، ولكي ينقذها، أمر السبتي بإلقاء البضائع وحتى المؤونة في البحر،

وبعد ذلك وضع نظاماً صارماً في إطعام الركـاب التزم بتنفيذه أحد أقارب قائد السفينة بعـد أداء القسم والقيام بذلك بأمانة، وعلى ما يبـدو، فإنه قام باللازم إلى أن وصلوا إلى مرسى بمملكة طبرقة.

لا ندري هل هذا المرسى هو مـا كان يطلق علـيه (Direne) الذي يعـرف اليوم بمرسى سوسة بلدة Erastotenes، Calimaco، Aristipo وعاصمة (Cirenaica)، وهي مملكة مستـقلة كانت تحت حكم فرع من (Tolomeos)، وقد يكون أيضاً مرسى كان يلجأ إليه الطلموط الذي يحـتفظ بأطلاله الهائلة دليلاً على حضارة رائعة وعظيمة.

وفي النشيد الثاني والعشرين نعرف أن إشارة السلام والأمان هي "رفع اليد إلى السماء". أما النشيد الثالث والعشرون، فيطلعنا على عادة اللبن الحامض، ويعرفنا بالحجم الذي كانت تصل إليه الأكباش في تلك المناطق.

كما يحكي النشـيد الرابع والعشرون عــن وصول السـفينــة إلى "مرسى البحر" بمدينــة الإسكندرية الشهيرة بعد ثمانية عشر يوماً من الإبحار منذ اليوم الثاني للـميلاد يعني منذ ٢٦ ديسـمبـر. يوجد بمدينة الإسكندرية مـرفآن يصل الأول بالبحـر والثاني بالنيل. وصلوا إذن يوم ١٢ يناير بعـد أن قطعوا مسـافة ٣٥٠٠ كيلو متر من بلنسية أو ٢٤٠٠ كيلو متر من تونس.

النشيد الخامس والعشرون:

سكان القاهرة

لا يُعدون

فكيف بالأشياء الأخرى

توجد خمسة وعشرون ألف جماعة

لا يمكن التعرف إلى أسمائها

إنها تدخل البهجة والسرور

فهي مضاءة

بالليل كما بالنهار.

النشيد السادس والعشرون:

بيوت الصلاة

تفوق ستة وثلاثين ألفاً

لا يمكن ذكرها

لعددها الكبير

يسمى واحد بالأزهر

وآخر ذو شأن

لأنه أكبر مسجد في القاهرة

ويسمى جامع [ابن] طولون.

النشيد السابع والعشرون:

أما الغورية

فهو أجمل المساجد كلها

إذ زُين بالذهب

وبكل الزخارف

التي نقشت بكل إتقان

فالحروف والحزام والزهور

من الذهب والفضة الرقيقة

وألوان أخرى كثيرة.

النشيد الثامن والعشرون:

وبالقاهرة دُفن

أحد أئمتنا

الذي قدم الكثير

لدين حبيبنا

وهو المسمى بالشافعي

في مسجد رائع

حيث يزور قبره

كل يوم كثير من الناس.

النشيد التاسع والعشرون:

وفي يوم آخر

زرنا مسجداً رائعاً

لتقية عظيمة

كان اسمها نفيسة

بنت الحسين

حفيدة علي بن أبي طالب

ذلك الأسد الشجاع.

إن زيارة القاهرة تعد مهـمة بالنسبة لحاجنا، فهو يخـصص لها ثلاثة مقاطع لنقف معه على الازدهار الذي وصلت إليه القاهرة في ذلك العصر. وقد زادت حماستـه عندما زار مدينة إسلامية بهذه القـوة، وقال: إن سكان القاهرة لا عد

لهم[1]، وإن بها خـمسة وعـشرين ألف جمـاعة، وإن مسـاجدها تفوق سـتة وثلاثين ألفاً، وإنها مدينة مضاءة بالليل كما بالنهار.

وقد بلغت القاهرة درجة كبيرة من الرقي في تلك الفترة، لقد أسسها الخلفاء الفاطميـون في القرن الرابع الهجري، إذ كـانت منافسة لبغـداد الثرية التي كان العباسيـون يقيمون فيها مـجدهم. كانت العاصمة السادسـة لمصر وريثة ممفيس الشهيـرة، والأقصر القديمة، وبابل التي حكمت إبان العصـر الفارسي، وورثته الإسكندرية التي بلغت أوجـها إبان البطالمة، والفسطاط حـيث أقام العباسـيون حكمهم. وقد استـعمل في بنائها بقايا ممفيس وهليوبولـيس، وزاد في تجميلها الخلفـاء ونواب الملوك. واليـوم ليس بهـا سوى ٣٥٠ مـسـجداً والكـثيـر من المصليـات، وستين حماماً، وأكثـر من ٣٠٠ عين ماء، و ٧١ باباً، يسقيها نهر النيل، ويجعلها تخصب نباتاً رائعاً، وبها يوجد مرسى بولاق والفسطاط.

أما جامع ابن طولون المبني على ربوة من قـبل أحمد بن طولون سنة ٢٦٥ هجرية، فقـد بُني على شاكلة الحرم المكي، وهو أقدم مسـجد في القاهرة، بل كان قـد بُني قبـل تأسيس المدينة نفـسهـا. ويتكون المبنى من مربع شـاسع من تسعين متـراً وفناءٍ مركزي حيث توجد نافورة الوضـوء، تحيط به أبواب وأروقة ذات عمودين وخـمسة أعمدة في الجهـة الشرقية، حيث يوجـد الجامع بمحرابه ومنبره، ومصطبة القراء.

أما الأزهر، فـهو الجامع الـذي بناه جوهر قائد جـيش الخليفـة المعزّ سنة ٣٦١هـ واسمه الحقيـقي هو الأزهر، تخليداً لاسم الزهراء، وهو اسم فاطمة بنت النبي محـمد (صلى الله عليـه وسلم) الذي يصل نسب المعز إليـها. هناك أربعـمائة

(١) أكثر من ٣٥٠٠٠٠ نسمة حسب الإحصاء الأخير.

عمود من الغرانيت والرخام السمـاقي نقلت من المباني الفرعونية القديمة أو من الكنائس المسيحية واستعملت في بناء المسجد.

أما "الغورية" فـهو آخر مسجد بناه السـلاطين المماليك، يرجع تاريخه إلى أوائل القـرن السـادس عشـر، ويجب رؤية المرمـر الرائع الذي يغطي جـدرانه الداخليـة. عندما زاره بوي مـونثون لم يكن قـد مرت على بنائه سـوى بضع سنوات، ولذلك يشعر بحماسة عند رؤية الزخارف الدقيقة الموجودة به.

وستـحدث لاحـقاً عن الإمـام الشـافعي الذي يشـير إلـيه النشـيد الثـامن والعشرون، وهو أحد الأئمة الأربعة ومدفون في القاهرة.

كانت نفيسة بنت الحسين بن علي ابن عم الرسول [ﷺ] وصهره. وعلي بن أبي طالب هـو رابع الخلفـاء الراشـدين، وقـد حكم مـن سنة ٣٥ إلى ٤٠ هجرية.

النشيد الثلاثون:

خرجنا نتجول

يوماً في القاهرة

نزولاً نحو ضفة النهر

متجهين إلى المطرية

لنرى بستاناً

توجد به

شجرة تين قديمة

عمرها ألف وسبعمائة سنة.

النشيد الواحد والثلاثون:

شجرة فتحت لمريم

من أجل إنقاذها

حيث كان يلاحقها

اليهود بغية قتلها

فحضنت الشجرة المباركة

الأم ووليدها في جوفها

وسبع مرات

تثمر في السنة.

النشيد الثاني والثلاثون:

قضينا ذلك اليوم

حيث مدينة فرعون

في تلك الأرض المخصبة

بالقرب من مطرية

حيث يوجد عمود

مرتفع جداً من قطعة واحدة

أدهشني كيف أقاموه

بأي قوة أم بأي حيلة.

النشيد الثالث والثلاثون:

في أربع غرف موضوع

وبكل إتقان مصنوع

عشرة أشبار من الأمام

مملوء بالحروف

كأنهم انتهوا منه اليوم

لا يعرف قراءته

مسلم ولا

يهودي أو مسيحي.

كان الهدف من إحدى نزهات حاجنا حين إقامته بالقاهرة هو زيارة بقايا "مدينة فرعون"، هيلوبوليس القديمة الموجودة قرب قرية مطرية. وليتمتع بمشاهدة شجرة (العائلة المقدسة) التي حافظ عليها المسلمون والمسيحيون من قرن إلى قرن، وهي شجرة تين استراح تحت ظلها السيد المسيح ومريم ويوسف عندما لجؤوا إلى مصر، وقد يكون بوي مونثون قد رأى الشجرة القديمة التي يقول إن عمرها ألف وسبعمائة سنة[1].

وقد يبست سنة ١٦٥٦م وتركت برعماً يصل طوله اليوم إلى ستة أمتار من محيط دائرته، ويمكن أن تستظل تحتها قافلة من مائة رجل.

إن الرواية التي تتصل بهذه الشجرة كانت تصاحبها ـ كما هو الحال اليوم ـ حكايات مقبولة نوعاً ما. يقال بأن جذعها قد انفتح عندما وصلت إليها العائلة المقدسة، وضمت في حضنها المسيح ومريم من ملاحقة (erodes) وتخليداً لهذا

(١) لا شك أن الشجرة حين أظلت العائلة المقدسة كان عمرها إذ ذاك مائة سنة.

الحدث، فإن الشجرة كانت تثمر سبع مرات في السنة. ويقال اليوم بأنه كدليل على الاحترام فقد حنت أغصانها القوية لضيوفها بحيث إن عنكبوتاً أغلقت بحجاب كثيف فتحة من جذعها بعد أن آوتهم. وعلى بُعد خطوات يوجد بئر كانت مياهه ملحاً أُجاجاً، فأصبحت عذبة زلالاً. ويفصل مطرية عن الأطلال الكبيرة (لمدينة الشمس) كيلو متر واحد من عاصمة محافظة مصر السفلى الثالث عشر المسماة (أُن ـ (On) في الإنجيل القديم و (Anu) في الكتابات الهيروغليفية، والتي تسمى هليوبوليس من قبل الإغريق والرومان. وهي المدينة التي كان لها نفوذ كبير إبان العصر الوسيط المصري.

إن تعاليم هليوبوليس انتشرت في كل الإمبراطورية، بل حتى الحفلات وطقوس مسلة (طوم) كان لها الأثر العميق في تكوين الديانة المصرية لاحقاً. وهكذا، فإن المدارس الفلسفية والأخلاق وعلم الفلك وُجدت هناك، وعنها أخذ رجال العصر القديم البارزون أمثال Solon، وLicurgo، وHirodoto، و Platon في العلوم.

وكل ما تبقى اليوم من المدينة العظيمة هضبة شاسعة عالية، مكونة من ركام هذه المدينة، ومن الرمال التي تجمعت عبر القرون، هذا ما تبقى للأجيال اللاحقة: "ربوة حزينة وحقول من الوحشة، وصمت القبور". وبعيداً ما زال النيل يخصب الأرض كما كان يفعل عندما كان بناة الأهرام يستخدمون العمال والعبيد بالمئات، حينما كان قساوسة (طوم) يكرسون حياتهم للأرواح (Anu) وإلى آلهة هليوبوليس.

ووسط تلك "الذكريات الجنائزية" كما يسميها شاعرنا الشهير (ريوخا)[1] أو

(١) شاعر إسباني (١٥٨٣م - ١٦٥٩م) ولد بإشبيلية وتوفي بمدريد، كان مكلفاً بمكتبة الملك فيليبي الرابع، كما كان مؤرخ قشتالة، وكانت أشعاره تدور حول الأخلاق والطبيعة.

"البستـان الصغير" حسب بوي مونشـون، فإنه ما زال يحتفظ بالشجـرة الكبيرة كما لو كانت جوهرة غالية، وكأنهـا الشاهد الوحيد على الأمجاد الغابرة، وفي نفس الوقت على بؤس حاضر هذا المكان، مسلة هليوبوليس.

ويصف الموريسكي المكان جيداً، فقد زاره وظل مندهشـاً ومتعجباً وهو يفكر في الطريقة التي تمت إقامته بها، لأن الأمـر يتعلق بحجر ضخم من الغرانيت، يبلغ ارتفاعه عشرين متراً وخمسة وسبعين سنتمتراً، وتوجد قاعدته اليوم مدفونة ـ كما هو حال المسلة نفسها ـ إلى درجة أنه اختفى من العمود ما يزيد عن مترين.

وقـد أقيـم عمود آخر يشبهه كان يستعمل بوابةً لمعبد الشمس الذي شيده -Iu (sertes) الملك الحادي عشر من الأسرة الحاكمة.

وقد اختفى معبد (طوم) إذ اندثرت المدينة التي كانت تحتضنه إلى الأبد، لقد شهـد هذا المكان تغـير أصحـابه آلاف المرات، ولكن المعـبد ظل صـامداً وهو الشاهد الدائم، وإن كان صامتاً على أحداث شعب عظيم وتاريخه.

وقد يكون هذا المعبد الأقدم من بين المعابد المعروفة، أما كتاباته الهيروغليفية التي أثارت انتبـاه رحالتنا والتي لا يعـرف قراءتهـا ـ كما قـال ـ: "مسلم ولا يهودي أو مسـيحي" فإنها الـيوم تقرأ وتترجم، فـمنذ أن اكتشف حجـر رشيد الشهير المكتوب في الوقت نفسه بالرموز الهيروغليفية؛ ومنذ البدء في فك رموز هذا الحـجر؛ فـإن Lepsius، و Champollion قـد فتـحا لـلعلم ذلك الكنز المحفور في صخور الغرانيت من طرف أقدم ساكني هذه الأرض.

إن الرموز الهيروغليـفية التي لم يكن ممكناً فكُّها من قبل أصـبحت في مخلفات الماضي، وبكل دهشة بدأنا نرى سلالات لا تنتهي من الملوك والفراعنة من زمن إبراهيم (عليه السلام) تستـعرض أمامنا، كما هو الشأن بالنسبـة إلى سادات (طيبة)

والهكسوس Hukussos أولئك الملوك الرعاة الذين حكموا فيما بعد، والبطالمة الذين قضت عليهم حـماقات كليوباترا، نريد أن نقول: إن فك الرموز المحـفورة في المعبد أمر عادي، هناك خبران مهمان: الأول جغرافي والثاني تاريخي.

فالمـلك Usertes الأول قد عـمل على تشيـيد ذلك الأثر على شـرف آلهة (Anu)، لكي يخلد بذلك احتفال مـرور ثلاثين عاماً من الحكم. وهو ينتسب إلى إمبـراطوريـة (طيبـة) القديمة، وهي الأسرة الحـاكمـة الثانية عـشـــرة التي ينتـســب إليهـا (Usertes) الأول. وبـــدأت بـ (Amenemaht) الأول بألفين ومائة وثلاثين سنة قبل الميلاد.

إن المدن الشهيرة في العالم قد بحثت ـ مـن أجل زخرفتها ـ عن بقايا مدينة هليوبوليس، فروما تملك تمثـالين أقامهما Psammetico، و Sesostris كما نقل آخر إلى القسطنطينية.

ويوجد اثنان معروفان باسم إبرة كليـوباترا كانا قد أقيما في زمن (Tiberio) على أبواب الإسكندرية.

النشيد الرابع والثلاثون:

خرج الأمير من القاهرة
مع رجاله
وأمر بنصب الخيام
بجانب بركة
دام انتظار الناس
ثلاثة أيام بلياليها
ولم ينقطع مجيئهم
ليلاً ونهاراً.

النشيد الخامس والثلاثون:

خمسة وعشرون جملاً

تمشي في المقدمة

مزينة بأغلى المجوهرات

ذات سروج زاهية

وكلها تحمل أغطية

بعضها بالحرير

وبعضها بإستبرق رقيق

دليلاً على قوته العظيمة.

النشيد السادس والثلاثون:

شيءٌ لا يصدق

فالناس الذين يفدون

حسب ظني

مائة ألف أو يزيدون

أما جيش حلب

فقد وجدناهم في الطريق

مع جيرانهم الأقربين

أناساً كثيرين ذوي شأن.

النشيد السابع والثلاثون:

من هنا انطلقت قافلة الحجيج

يكونها الكثير من الناس

من رجال ونساء

وكثير من الجمال

مشينا نحو وجهتنا

عبر الجبال والوديان

وعبر الرمال الحية

بالليل كما بالنهار.

النشيد الثامن والثلاثون:

جيش من الناس

يمشي عبر الصحراء بانتظام

مع موكب يحميه

راكبين الجمال

يختفون تارة بين التلال

معهم أربعة مدافع

من النوع القديم

يأخذونها معهم سلاحاً.

النشيد التاسع والثلاثون:

كيف أحكي لكم ما شاهدت

عبر الجبال والربى

والأراضي التي مررت بها

وعن الجبال الخالية

رأيت الأنبياء المدفونين

وعليهم بهاء كبير

لأنهم عبدوا ربهم

فكانوا من الفائزين.

النشيد الأربعون:

إن رؤية هؤلاء

الرجال بتلك الشجاعة

تبعث الفرحة

وتغمر بالسعادة

إذ كانوا في الضيق

كما في السعة

يسعون دائماً

إلى الأفضل.

النشيد الواحد والأربعون:

هكذا وصلنا إلى مكة

هذه المدينة المباركة

فأبوابها بركة

وجدرانها رحمة

وسقوفها ناصعة

وهي كلها مباركة

إذ كل من يزورها

يفوز بالمغفرة.

إن تنظيم الحج والسفر عبر الصحراء والوصول إلى مكة قد وصفه الناظم في الأناشيد السابقة بقليل من الوزن، ولكن بصدق واضح .

وقد كانت نقطة التجمع حسب العادة هي البركة المسماة (بركة الحاج)، التي تغذيها اليوم القناة التي فتحت مؤخراً.

ولقد اعتاد أمير الحج أو شيخ الحج أن ينصب خيامه في تلك النقطة، وينتظر ثلاثة أيام حتى تنتظم القافلة، وكان الناس يفدون إلى هذا المكان بالليل والنهار. وكان عددهم يفوق مائة ألف حسب تقدير الموريسكي الإسباني وتخيله، وينضم إليهم فيما بعد جيش حلب، وهكذا تكبر القافلة بمجموعات تنضم إليها شيئاً فشيئاً.

ويظهر ثراء أمير الحج[1] بأخذه خمسة وعشرين جملاً مزينة بالحلي والإستبرق، حاملة الهدايا التي سيقدمها في مكة، ومن بينها كسوة الكعبة المشرفة[2].

ودون شك فإن الظروف لم تكن هناك مواتية، ولم تكن القبائل هادئة، مادام السلطان قد بعث بجيش لمرافقة الحجاج وهو مزود بأربعة مدافع.

(١) كان هذا منصباً مدى الحياة، وكان شاغله يأخذ راتباً كبيراً دون ذكر الأرباح الكبيرة من إيجار الجمال، والخيول وإرث المسلمين الذين يموتون في الطريق، وأخذ الضرائب من التجار الذين يريدون مرافقة قافلة الحجاج.

(٢) إن كسوة الكعبة لا تزال تخرج حتى اليوم (١٨٥٩م) من القاهرة، كما كان عليه الحال في عهد بوي مونثون. وخروجها يقام له حفل كبير يسمى (المحمل)، وهي الانطلاقة الرسمية للحج. والمحمل هي تلك الآلة التي يوضع فيها غطاء الكعبة لحمله إلى مكة، ولهذه الآلة شكل هرمي في جزئه الأعلى، وتنتهي بكرة من ذهب وشكل هلالي، وتحيط أقمشة زاهية بالجزء الأسفل، بحيث تنسدل حتى تكاد تلامس الأرض عندما توضع على الجمل. والمحمل له صفة شيء مقدس، إذ يودعه جمهور غفير يرأسه الخديو، تحيط به أسرته وأعضاء الحكومة وكبار الموظفين في الدولة. =

وكانت القوافل المكونة من كثير من الجمال يسير فيها التجار والمسلمون المحظوظون لأداء الفريضة تمشي بالليل كما بالنهار[1]، ثم إن الرحلة قد تمت خلال شهري فبراير ومارس، أو مارس وأبريل؛ لأن الرمال "كانت نشيطة"، ولذلك كانوا يمشون حتى بالليل، وإلا فإن البرد يكون قاسياً في الليل، فطقس الجزيرة العربية رمال وشمس تلفح في النهار، وانخفاض كبير في درجة الحرارة ليلاً.

لا يذكر بوي مونثون صلوات الحجاج ودعواتهم، ولكننا نعرف أن القوافل عندما تصل إلى حدود "البلد الحرام" فإنهم يقومون بأولى شعائر الحج، وهي الوضوء بالماء أو التيمم بالتراب، وصلاة الفريضة الواجبة، ولبس لباس الإحرام، وهم يخطون خطواتهم في اتجاه مكة.

= وتقام منصة تزينها الشعارات والأعلام بساحة حلوان الكبيرة شمال شرق القاهرة أمام محطة القطار، وهناك يجلس رئيس الدولة للاحتفال بالمناسبة. وينطلق المحمل ويدور حول الساحة ثلاث مرات، وبعد ذلك يتوجه حيث يوجد الخديو فيقدمون له رباط الكسوة فيقبله، ويقدمه لحاكم المحمل المكلف بتوصيله.

وفي هذه الأثناء تطلق طلقات مدفعية، وتعزف الموسيقى العسكرية معلنة عن انطلاق الموكب الذي تتبعه أفواج عديدة من الحجاج والجمهور. كما يتبع المحمل سبعة مشايخ يركبون الجمال، ويسبقهم شيخ الحملة بشكل شبه عار، وهو يتمايل بصدره النحاسي على مطيته، ويرافق المحمل دائماً. ويتوارث هذا العمل من جيل إلى جيل منذ القرن الثالث عشر حيث بدأت عادة نقل الكسوة وأسست حفلة المحمل ويطاف بالمحمل عبر المدينة، ويغلف الستار في اليوم الثاني. وفي أول صباح اليوم الثالث ينطلق المحمل في قطار من أربعين قاطرة أو تزيد من الحجاج وسط طلقات المدفع والموسيقى وتحيات الجمهور، وعندما يصل إلى السويس يحمل في باخرة تابعة للخديو، تأخذه إلى جدة حيث تتشكل قافلة الحجاج إلى مكة.

(١) المسافة التي تفصل القاهرة عن مكة عبر الطريق العادي للقوافل والحجاج تقدر بحوالي ١٨٠٠ كيلو متر. وأخذاً بعين الاعتبار الصعوبة في تحرك تلك الجموع لا نتوقع أن تسير أكثر من عشرين كيلو متراً يومياً أو ثلاثين. وقد وصلوا إلى مكة دون شك في النصف الثاني من شهر مارس أو في النصف الأول من أبريل، وأن الثاني عشر من الشهر العربي وافق في تلك السنة شهر أبريل أو مايو.

والبلد الحرام هو جزء من المملكة العربية السعودية الواقعة بين البحر الأحمر وخط يسير من (Arabo) شمالاً، ويقطع ذات عرق والطائف وقرن المنازل ويلملم، ليعود إلى البحر عبر المحرمة، والميناء الذي يسمى مرسى إبراهيم الواقع جنوب شرق جدة بمسافة اثنين وثلاثين ميلاً. وحسبما يقول حاجنا، فإنه رأى في الطريق "أنبياء مدفونين يملؤهم البهاء"، ودون شك فإن الأمر يتعلق بالزيارة التي لابد أن يقوم بها الحجاج إلى قبر حواء الذي يوجد قريباً من جدة.

وبأقدام حافية ورؤوس مكشوفة ينتظر الحجيج بصبر أن يحصل جميعهم على رخصة الزيارة. وحينئذ يفتح الباب، وتظهر مساحة مستطيلة بوسطها مصلى تعلوه قبة. وبهذه العفوية التي يتصف بها المسلمون فإن الحجاج يقبّلون الحجرة المستطيلة. وعلى بعد مائتين وأربعين قدماً يسجدون أمام رأسها الممثل بدائرة من ثلاثين قدماً في قطرها وفي المساحة الوسطى يوجد صدرها الذي هو عبارة عن كومتين من حجر. وإلى جهة ظهر القبر الهائل والذي يعد ـ حسب المفاهيم العربية ـ أكبر أثر في العالم[1].

إن المسافة التي تفصل جدة عن مكة تقدر بسبعة وثمانين كيلو متراً، وهي المسافة التي تجتازها القوافل عادة في ليلتين.

ووسط الطريق توجد الهدى، وهي النقطة التي يجدد فيها الوضوء ولبس ثوب الإحرام. كما تعد أقرب نقطة إلى مكة يمكن أن يصلها المسيحيون. "إن المسيحي الذي يتجاوز هذا الحد يموت في الحال". هذا ما كانوا يقولونه لـ(Maltzan)، وهو أحد الرحالة القلائل الذي استطاع أن يدخل مكة متخفياً

---

(١) هذا من صنع خيال واضع الحواشي، إذ لا علاقة لما قاله بالحج. وهذا يعطينا دليلاً على أن كاتبه يجهل أشياء كثيرة عن الحج والإسلام بصفة عامة، وقد اعتمد فيما كتبه على بعض المستشرقين وما ترجم إلى اللغات الأوروبية.

بوصفه مسلماً مع الحجاج. لم يمت بطبيعة الحال، ولكنه وجد نفسه في وضع صعب للغاية بفعل الطقس وانعدام النظافة والمتاعب المتنوعة التي لاقاها في الرحلة.

يحكي Maltzan أنه في نهاية الليلة الثانية وصلوا إلى الربوة التي منها تبرز عاصمة الإسلام كسحابة رمادية يضيئها نور الغسق.

أصوات الفرح تحيي مكة عندما لاحت في الأفق بمسجدها الكبير المتوج بمآذنه السبع وقبابه العديدة التي تشرف على الكعبة أو "بيت الله". إن الحجاج المنهكين من التعب وجدوا مع ذلك القوة والطاقة لكي يصلوا ويباركوا هذه المدينة المقدسة "مهد الإسلام"، "مدينة الله الخالدة على الأرض" وعندما يقتربون إلى الحرم المقدس فإنهم يؤدون التلبية: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك..".

النشيد الثاني والأربعون:

خرج الشافعي[1]

لاستقبال قائد القافلة

فكان مشهداً رائعاً

يعجز المرء عن وصفه:

المزامير والطبول

وكثير من الخيول

إنه يوم سعيد حقاً

رأينا فيه تلك الأشياء.

(١) كلمة "شافعي" التي ربما تدل على شريف مكة، لها في كثير من الأحيان المعنى نفسه للدلالة على الإمام الشافعي، وكأنه يريد بذلك أن يقول: إن الإمام المذكور هو الذي يتولى الخروج لاستقبال الحجاج.

النشيد الثالث والأربعون:

كانت الخيول مزينة

بمجوهرات وأحجار ثمينة

وبسروج

لا يمكن تصديقها

كانت الزينة والاحتفال

والهتافات والزهو البادي عليهم

مع المزامير والطبول

يتفاعل معها كل الحضور.

النشيد الرابع والأربعون:

نزل الناس كلهم

بكثير من البهاء

والوقار والاحترام.

تعانق الاثنان

وسلما على بعضهما بتواضع

وأدب وتكريم وتشريف

إذ بموقفهما هذا

أظهرا أنهما سيدان كبيران.

النشيد الخامس والأربعون:

تسلم قائد الحج

الجمل حامل الكسوة

وبكل هدوء ورصانة

دون أن يظهر فخراً ولا تكبراً

بل كإنسان عادي

حيث برهن على قدره

حمل الجمل على طاعته

وتلقاها بيديه.

النشيد السادس والأربعون:

بالنفير والطبول

حيث كان طنينها

في الجبال والوديان

يذهل الإنسان

ودموع الفرح

تنهمر من العيون

ذهب الجمع إلى باب السلام

باب البيت الشريف.

هذه المقاطع تحكي عن استقبال الحجاج؛ إنه شريف مكة المتبوع بموكب بهيج، وبالطبول والنفير التي (تدوي في العالم)، والخيول المزينة بالمجوهرات والأحجار الكريمة التي تخرج من المدينة بين الصياح والهتاف، ينزل الجميع بكل وقار عندما يلتقي القائدان ويتعانقان، ويتبادلان التحية والاحترام، وبذلك أظهرا أنهما "رجلان من الأسياد". ويهدي الأمير لضيفه جملاً، إنه جمل الكسوة الذي لان له وبرك على ركبتيه، ويتعلق هذا البيت بستار الكعبة الذي

يغير كل سنة، والذي يؤتى به ـ كما سبق القول ـ من القاهرة، حيث يصنع في أحد المساجد على حساب خديو مصر وسلطان القسطنطينية، ويأخذ أمير الحج جملاً خاصاً لحمل هذه الكسوة، وبما أن الإرسالية تكون باسم السلطان، وتشكل امتيازاً خاصاً بالحاكم الأعلى، فإنه تبرز من هنا أهمية تقديم الهدية والاحترام والإجلال الذي يستقبل به.

إن حضور هذا الحفل لابد وأنه كان مثيراً لحاجنا الموريسكي الذي يصفه بأسلوب حي، مذكراً بأن الحجاج كانوا يذرفون دموع الفرح، وأن الجبال والوديان كانت تدوي من الطبول والهتافات وأصوات النفير. والحجاج لا يمكنهم الوقوف بالمدينة دون أن يدخلوا قبل ذلك ـ وبالتحديد من باب السلام ـ إلى المسجد، الذي يصفه بوي مونثون في أربعة عشر نشيداً، وهو الأساس والنقطة الرئيسة في الأناشيد كلها.

النشيد السابع والأربعون:

كيف أحكي لكم عن هذا البيت

بيت مكة

وعن النظام والجلال

الموجود في هذا البيت

إنه بيت ذو شأن وفضل

وشرف كبير

به ثراء وثروة

لا يمكن تقديرها.

النشيد الثامن والأربعون:

توجد به أربعة مقامات

لمذاهبنا الأربعة

ومآذن رائعة

عالية جداً وزاهية

وأربع منها

هي لأئمتنا الأربعة

تضفي على البيت

الدهشة والروعة.

النشيد التاسع والأربعون:

أما المئذنة الأخرى

فتوجد حيث بئر زمزم

وهي أول مئذنة

نودي فيها للصلاة

فهي شفاء

لما يعمل من الأشياء

وهي تدهش الناس

لما يقام فيها من صلوات.

النشيد الخمسون:

كانت الكعبة والحرم مكشوفين

إلا المكان الأكبر

من هذا البيت

ذي السقف الثري

برواقه الذي يحمله

سبعمائة عمود

يرتكز عليها

سطح السقف العلوي.

النشيد الواحد والخمسون:

تسعمائة مصباح

تضيء هذا البيت

حيث كان الناس

لا ينامون الليل كله

ولا يتوقفون

عن الدعاء والذكر

طالبين المغفرة

من رب السماء.

النشيد الثاني والخمسون:

هذا البيت العظيم

يوجد وسط المدينة

به أبواب كثيرة - تحيط بالبيت

من كل جهة

تسعة وثلاثون باباً

منها يدخل الحجاج

ويخرجون للطواف.

يحكي علي بك العباسي (دومينغو باديا) عن دخوله إلى الكعبة قائلاً: "وصلت إلى المسجد وأخذت الطريق الرئيس لكي أدخل من باب السلام الذي يعد الدخول منه مستحباً، وبعد أن خلعت نعلي دخلت من ذلك الباب السعيد الذي يوجد في الجهة الشمالية، كان الوقت منتصف الليل، وقد عبرنا البوابة وكنا على وشك الدخول إلى الفناء الكبير حيث توجد الكعبة عندما أوقفني المطوف مشيراً بأصبعه إلى الكعبة قائلاً: "انظروا إنه بيت الله الحرام" إن جماعة الحجاج المحيطة بي، ورواق السواري الكثيرة التي لا يمكن للعين الإحاطة بها، والفناء الشاسع، والكعبة المغطاة من الأعلى إلى الأسفل بستار أسود، والمحاطة بمصابيح الساعة المتأخرة من الليل وهدوئها بالإضافة إلى حماسة مطوفنا الذي كان يتكلم وسطنا، كل هذا شكل بالنسبة لي مشهداً عظيماً لن يمحى أبداً من ذاكرتي".

تسعة عشر باباً وثمانية وثلاثون قوساً تسمح بالدخول إليه تحيط بمسجد مكة الشهير، وهي بسيطة بصفة عامة باستثناء باب الصفا الذي تزينه بعض الزخارف الخارجية.

وترتفع سبع مآذن تحيط بالكعبة، وهي ملونة بألوان مختلفة، ومنها ينادي المؤذن للصلاة.

أما الجدران الخارجية فهي مزينة بحروف ونقوش بارزة، وعلى الأبواب توجد قطع من المرمر مرصعة فوق الأبواب، وتبرز كتابات جميلة جداً تحمل اسم الأمير الذي شيدت في عهده تلك الأعمال.

ويتكون وسط الحرم من فناء شاسع طوله مائة وثمانون متراً وعرضه مائة وثلاثون متراً تحيط به في جهاته الأربع أعمدة جميلة تتخللها أربع سوارٍ من الجهة الشرقية، وثلاث من الجهة الأخرى. وهذه الركائز تصل - حسب بعض

الأخبـار ـ إلى ستمائـة (يقول كاتبنا إنهـا سبعمـائة). ولم تصنع بنفس الشكل والمادة، فبعضها من المرمر، والبعض من الجرانيت، والآخر من الحجر العادي. يبلغ ارتفاع هذه السواري ستة أمتار تحمل مائة وخـمسين قبة صغيرة مجيرة من الخارج، وتغلق التفـاريج مع الأقواس المواتية المدببة التي تتدلى منهـا الكثير من المصابيح التي يقول حاجنا إنها تصل إلى تسعمائة.

ويتـجلى في الزخارف النبـاتية للجـدران وفي كل جهـة منها لفظ الجـلالة بحروف بارزة، كمـا يتكرر اسم الرسول محمد صلى الله عليـه وسلم وأسماء الخلفاء الراشدين.

وفي وسط الفناء الواسع تـشمخ الكعـبـة التي هي هدف الحج الإسـلامي، وأول بيت وضع للناس في الأرض حسب العقيدة الإسلامية.

ويحيط بالكعبـة ـ بعيداً عن القواعد التي ترتكز عليـها ـ بلاط من المرمر ذو شكل بيضـاوي، تحده سوارٍ من البـرنز المذهب، وتربط بين الأعمـدة سلاسل تتدلى منها مصابيح زجاجـية تضاء عند الغروب. وهناك بلاط آخر أعلى بقليل من الأول، وثالث تحده البـوابات التي وصفناها سابقـاً، والتي تشكل الأجنحة الأربعـة لهذا البناء الضـخم. وهذا يعني أن الذي بناه كان يـنزل إلى مسـتوى الأرض كلما اقترب إلى الوسط كي تظهر الكعبة من هناك في وضع مميز، لأنها أهم شيءٍ يحتويه المسجد الحرام. وتوجد حول الكعبة ثلاث بنايات صغيرة تشبه في شكلهـا الهـيـاكل الـهندية، وهو المكان الذي يجلـس فـيـه ممثلو المذاهب الإسلامية "مقـامات المذاهب الأربعة" كما يسميهـا شاعرنا، ويوجد الرابع في مبنى مستطيل يغطي في الوقت نفسه بئر زمزم الشهير[1].

(١) يتحدث بوي مـونتون عن أربعة مقامـات، ويشير إلى أن الخامس يوجـد فوق زمزم، وهذا يعني أنه يضمن من بينها مقام إبراهيم.

إن المؤذن أو المكلف بهذه البناية هو الذي ينادي للصلاة نحو المقام الشافعي، ويكرر المؤذنون الأذان في المآذن السبع الخارجية، وبذلك يقول النشيد التاسع والأربعون إن منطقة زمزم "كانت هي الأولى التي نودي منها للصلاة". وهذا الأمر يشير إلى أهمية هذا الموقع ومقداره، لهذا فقد وضعت هناك مؤشرات وبيانات الساعة الشمسية التي تشير إلى ساعات الصلاة.

أما مقام إبراهيم ـ الذي يسميه حاجنا "المقام" ـ فهو فناء بهي يرتكز على ست دعائم وبه حجرة كبيرة يكسوها عادة سجاد مطرز من الفضة والذهب، ويحكى أن سيدنا إبراهيم استعملها أساساً لبناء الكعبة وكان يرفع بشكل عجيب كلما كان مستوى الجدار آخذاً في الارتفاع.

وتثير الانتباه بناية أنيقة من المرمر الأبيض مشيدة بالقرب من مقام إبراهيم، والبناية هذه هي المنبر المعد لخطيب الجمعة، وهو أثر جميل يحتفظ به كجوهرة ثمينة. ويوجد به شكل هرمي جميل جداً مصنوع من النحاس بدقة وروعة، وهو موجه للصوت.

وتوجد قرب زمزم بنايتان يطلق عليهما اسم القبتين، ويحتفظ فيهما بالكؤوس والمصابيح وأشياء أخرى للعبادة.

بقي لنا أن نتحدث عن باب السلام، وهو قوس يقع قبالة الكعبة غير بعيد عن مقام إبراهيم، ولا يجب أن نخلط بينه وبين الباب الذي يحمل الاسم نفسه، وهو الذي يدخل منه الحجاج إلى الحرم فيمرون تحت هذا القوس عند وصولهم، لأنهم يعتقدون أن الدخول من هذا الباب له فضل خاص[١].

ويتفق الوصف الذي يقدمه موريسكيُّنا بدقة مع الصور المهمة التي نشرها

---

(١) دخول الحرمين الشريفين من باب السلام سنة نبوية، (المترجم).

أخيراً الدكتور (هورفرنجة) وأشـرنا إليها سابقاً. ومن الغريب أن الأوصاف التي يقدمها رحالة موثوق بهم كـ(Maltzan) وعلي بك العباسي نجد تأكيداً لها في أناشيد بوي مونثون القديمة.

ويصف شاعرنا ساحـة المسجد على أنها "مكشوفة" أي لا يـغطيها سقف، وذكر أنه: "يحيط بها بناء مغطى يرتكز على سبعمائة عمود". لا يمكن أن نجد وصفاً أكثر اختصاراً ودقة للمـبنى. كما يتحدث عن الثراء الذي يحتضنه الحرم الشريف، وعن العديـد من المصابيح التي تزينه وتضيئـه، وعن المآذن " العالية الجميلة والبهـية وعن التسعة والثلاثين باباً التي يخـرج منها الحجاج ويدخلون، كل هذا يقدم لنا تفصيلاً دقيقاً للمكان.

كما نجـد الدقة نفسهـا في النشيد الثالـث والخمسين الذي يتحـدث فيه عن زيارته للكعبة.

النشيد الثالث والخمسون:

كيف أحدثكم عن الكعبة
وعن جلالها العظيم
الذهب والفضة والثراء
لا يعد ولا يحصى
ستار رائع
من حرير مزركش
بالفضة الرقيقة
وباب مملوء بالبهاء

ويحلق خيال موريسكينا عندما يـتناول الحديث عن الكعبة، التي هي الهدف

الأساس لرحلته المهمة، ويقول: إنه لا يمكن الإحاطة بذلك الثراء والشرف العظيم المجتمع هناك، ومع ذلك فليست الكعبة إلا بناءً عادياً معداً من جدران مكشوفة[1]، وفتحة واحدة للباب. ومساحته لا تتعدى اثني عشر متراً بالنسبة إلى ضلعها الأطول، وثمانية أمتار للضلع الأقصر وتسعة أمتار هي مقدار الارتفاع. هذه هي الكعبة التي تعد الهدف الأساس في الحج الإسلامي، وهو أول بيت وضع للناس، وتاريخها تحيط به حسب الآثار العربية[2] الكثير من التفاصيل الدقيقة، إذ إن الملائكة وضعت بعد نزول آدم إلى الأرض، في المكان الذي توجد فيه الكعبة اليوم، خيمة محمولة من الفردوس الأرضي[3]. وبعد ذلك (Seth) أقام بناية من الحجر لعبادة الله، ولما أتى الطوفان جرفه، وهذا ما جعل إبراهيم بمساعدة ابنه إسماعيل يرفعانه من جديد ليُشرع الحج الذي لم يتوقف منذ ذلك الحين.

كانت الكعبة خلال قرون عديدة مخصصة لعبادة الأصنام. ويقول المسعودي[4] عن هذا الأمر إن هذا المكان كان أحد البيوت السبعة المعظمة المتخذة على أسماء الكواكب. أما الثاني فكان يوجد بأصبهان[5]، والثالث المسمى ماندوسان كان يوجد بالهند[6]، والرابع المسمى نوبيهار كان يوجد في بلخ بخراسان، وكان

(١) لعله يقصد بالجدران المكشوفة أن الكعبة قديمًا لم يكن لها سقف. وهذا ما تؤكده عدد من الروايات العربية. انظر تاريخ مكة للأزرقي ١/٦٦.

(2) Garcin de tassy : Lislamisme.

(٣) انظر تاريخ مكة للأزرقي ١/٣٧.

(٤) المسعودي ٢/٢٢٧. مروج الذهب ترجمة Barbier Meynard، باريس ١٨٦٥م.

(٥) كان معبد أصبهان على قمة الجبل المسمى ماريس.

(٦) كان الماندوسان محطة تعبد مستمر من طرف سكان الهند، وكانت تقام فيه الأضحيات وبداخله أحجار ذات جاذبية قوية جداً.

لعبادة القمر[١]، أما الخامس وهو غمدان فكان يوجد بصنعاء في اليمن، وكان خاصاً بعبادة (فينوس)[٢]، والسادس كوحان المخصص لـعبادة الشمس، وكان يوجد بخراسان[٣]، أما السابع فكان يوجد بالصين[٤].

ويضيف المؤلف نفسه أن الملك عمرو بن لحي ساد قومه بمكة، واستولى على أمر البيت، وفي رحلـته إلى البلقاء بناحية دمـشق رأى الناس يعبدون الأوثان، فطلب منهم واحــدة من تلك الصــور لأخذها إلى مكــة. فأعطوه تمثـال هبل، فأخذه إلى الكعبة، ووضع بين الإلهين أســاف ونائلة، وصار يعبد حتى مجيء النبي محمد (صلى الله عليه وسلم). ومع مرور الزمن أصبحت الكعبة خراباً، فقد هاجمتـها عصابة من اللصوص، فضاعت منها الثـروات الكبيرة التي كانت تحويها[٥].

وبعد ذلك عند محاولة أهل قريش إعـادة بنائها وجدوا على الجدران رسوماً قديمة جــداً ذات ألوان عجـيبــة، يمثل أحدها إبراهيم وبيــده نبال، وأمــامه ابنه إسماعيل راكــباً على فرسه يحمي شعـبه. وغير بعيد يوجـد (الفاروق) محاطاً

(١) أما نوبيهار فقد بـناه (مينوكسير)، وكان عالياً ومتيناً، تعلوه الرمـاح والأعلام الخضر الحريرية الطويلة التي تصل إلى مائة ذراع، وكانت ترفرف بفعل الرياح، وكانت تكتنفه جدران طويلة جداً.

(٢) أما (غـمدان) فـقد بناه (Adahac) وهدمه عـثمان بـن عفان، ويقـال إن ملوك اليمن عندمـا كانوا يرتاحون في فنائه العالي كان بريق المشاعل يرى ليلاً على بعـد مسافات كبيرة، وفي سنة ٣٣٢هـ لم يعد هذا المعبد إلا ركاماً من الرديم.

(٣) كان كوحان بغاية بارزة لجمالها، وقد أسسها الملك Caus وهدمها المعتصم بالله.

(٤) بنى هذا المعبد أحد أبناء (عمـور) حفيد (سوبيل). وكان مقسماً إلى سبـعة طوابق وكل طابق تضيئه سبع نوافذ، وأمام كل نافذة يوجد تمثال لأحد الكواكب، وكل واحد منها تزينه أحجار كريمة مختلفة تتوزع فيها الألوان السبعة، كان ذلك المعبد موضع العديد من الحكايات الغامضة، وقد كان الصينيون يخبؤون فيه معارفهم الفلكية، (مروج الذهب، المسعودي).

(٥) قوله: إن عصابة من اللصوص هاجمت مكة، فأصبحت خرابًا بعيد كل البعد عن الصحة، والوثائق العربية وغير العربية تؤكد عكس ذلك.

بمجموعـة من الناس الذين كان يوزع عليهم غنيـمة جيدة مع أولاده الكثـيرين، ويمثل ذلك المنظر أكثر من سـتين وجهاً. وإلى جانب كل شخصـية يوجد وصف للأعمال الأساس في حياته، والإله الذي كان يعبده مع الطقوس الخاصة بعبادته. وحتى زمن محمد صلى الله عليه وسلم كانت الكعبة لاتزال معبداً وثنياً.

لكن في العاشر من رمـضان من العام الثامن الهـجري (٦٣٠م) تقدم النبي صلى الله عليه وسلم على رأس متبعيـه من المهاجرين والأنصار، وقبائل أخرى اعتنقت الإسلام نحو مكة ليدعو إلى الإسلام هذه المدينة التي كانت تقف دائماً ضد دعوته، وبعد عشرة أيام اسـتطاع الجيش الإسلامي القوي المكون من عشرة آلاف رجل الاستيلاء عليها.

وقد زار النبي صلى الله عليه وسلم المسجد ـ بطـبيعة الحال ـ وطاف به سبع مرات، ولمس الحجر الأسود بعصاه، فطلب مـفتاح الكعبة ودخلها. ولقد رأى هناك الكثير من الرسوم والصور على الجدران، وحـمامة مصنوعة من الخشب، وتمثال إبراهيم وبيده النبال التي تعود العرب أن يتطيروا بها.

كان عـدد الأصنام التي كان يعـبدها أهل البلد مـا يقارب ثلاثمـائة وستين صنماً. كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يمر أمامها، وبإشارة من محجن بيده كانت تهـدم تلك الأصنام وتهشم أشلاءً، في الوقت الذي كـان فيه النبي محمد يردد هذه الكلمات: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، وفي الظهر نودي للصلاة لأول مرة من أعلى الكعبة.

والمبنى مغطى دائماً بستار من الحـرير الأسود، "ستار حريري مزركش"(١).

(١) إن أصل الستار الذي يغطي الكعـبة يعود ـ حسب المسعودي ـ إلى أنه عند إعادة بـنائها كانت قريش تريد كسوتهـا بالأقمشة المخططة القـادمة من اليمن، والتي كان الأشراف يحـملونها في ذلك الوقت فوق اللباس.

كما يقـول حاجنا، وبذلك يبدو غامقـاً وعجيباً. ويـحيط به حزام من الذهب كتبـت عليه الشهادتان: "لا إله إلا الله مـحمد رسول الله" أمـا قطعة الغطاء فهي علىَ شكل ستار للـباب ومطرزة بالفضة والذهب. وهذه الفتحة وفـتحتان أخريان هي الفتـحات الوحيدة فقط التي تظهر في ذلك القـماش الشاسع الذي يسميه المسلمون "كسوة الكعبة".

لقد قلنا: إن الستـار يُصنع في مساجد القاهرة، وتحـدثنا عن الطقوس التي تصاحب نقـله إلى مكة، وكل سنة يتم تجديده يوم العـيد الإسـلامي، بعد أن تظل جدران الكعبـة مكشوفة لمدة خمسـة عشر يوماً منذ الحفلة المسـماة "يحرم بيت الله"، وخلالها يقطع كل الستار المحـيط بالبناية فوق علو الباب، ويحاول العاملون بالمسجد الحصول على بعض قطع السـتار ويهدونها إلى الحجاج الذين يردون الجميل بمكافأة ما.

ومما يثير انتبـاه الحاج خارج الكعبة أمران: "الحـجر الأسود" و"المحراب". إذ يعد الحـجر الأسود موضع احـترام وتقدير، ويستطيع المؤمنون أن يـروه عبر فتحة في كـسوة الكعبة. هذا الحجر حسب الرواية العربيـة هو ياقوت شفاف، أتى به جبريـل من السماء وأهداه إلى سيـدنا إبراهيم، وقد فقد صـفاءه عندما لمسته امـرأة فاجرة، فظل منذ ذلك الحين أسود معـتماً[1]. ويوجد الحجر على ارتفاع مـتر وعشرين سنتـيمتراً عن الأرض، وله شكل بيـضوي، ويصل قطره أيضاً إلى عـشرين سنتـيمتـراً، أما سطحـه فهو مـصقول ولامـع جراء اللمس والتقبيل من مـلايين الحجاج. ويبدو أنه مكون من عدة أجزاء مـن المادة نفسها التي كانت النار قد فكتها فأعيد إلصاقها بالإسمنت وبحزام من الفضة. أما من حيث تكوينه المعـدني فهو قطعة من البـازلت البركاني الممزوج بقطع زجـاجية

(١) انظر أخبار مكة للأزرقي ١/ ٣٢٢ ـ ٣٢٩.

صغيرة من الفلسبار الأحمر على قاع أسود ناصع[١].

ولقد كان العرب قبل مجيء محمد صلى الله عليه وسلم يعبدون هذا الحجر، وإليه يشير دون شك هيرودوت وسويدس بل وحتى كليمنتي من الإسكندرية الذي كان يقول: "العرب الذين يعبدون الحجر".

ويحكى أنه عند إعادة بناء الكعبة من قبل قريش ووصولهم في البناء إلى الارتفاع الذي يجب أن يوضع فيه "الحجر الأسود" حدث بينهم خلاف كبير حول من يتشرف برفعه من الأرض ليضعه في مكانه، فاتفقوا على أن يكون الحَكَمُ هو أول الداخلين إلى المكان، فحدث أن كان محمد (صلى الله عليه وسلم) هو أول من دخل، وحل ذلك الخلاف حيث نشر ثوبه، وأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه، وأمرهم بأن يأخذ كل واحد من قبائل مكة الأربع[٢] بناحية من الثوب ويرفعونه، ثم وضعه هو بيده في مكانه، وبعد خمس سنوات بدأ محمد صلى الله عليه وسلم الدعوة.

ويظهر في الجدار الغربي للكعبة الميزاب وهو قناة ينساب عبرها ماء المطر الذي يتجمع في سقف المبنى. طوله عشرون سنتيمتراً، وسمكه ثمانية عشر. ويقال إن هذا الميزاب مصنوع من الذهب الخالص، وإن كان علي بك العباسي يعتقد بأنه من النحاس المذهب. وتحت الميزاب هناك بلاط من المرمر والفسيفساء المرتفع عن الأرض والمنفصل عن الكعبة.

يقول بوي مونثون: إن الباب مكسوٌّ بالفضة الرقيقة وقت زيارته للكعبة، ونعرف أن الباب جدد سنة ١٦٣٣م بأمر من سلطان القسطنطينية، ولهذا فلا

---

(١) انظر علي بك العباسي.

(٢) هؤلاء الأربعة هم: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، والأسود بن عبد المطلب، وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمر، وقيس بن عدي.

نتعجب إذا ما كان علي بك قد شاهده مصفحاً بالنحاس المذهب والمفضض.

وتفتح الكعبة ثلاث مرات في السنة فقط: الأولى للرجال الذين يسكنون مكة، والثانية في اليوم التالي للنساء، والثالثة حين القيام بغسلها.

أما داخل الكعبة، فإنه لا يتعدى دائرة صغيرة بسقف يرتكز على عمودين، وليس بها نور سوى الذي ينفذ إليها من الباب. والسقف ـ وكذا الجدران ـ مكسوة بقماش من حرير وردي اللون تزينه ورود فضية، وتجدد هذه الأقمشة عادة عندما يعتلي عرش القسطنطينية ملك جديد، وفي أسفل الجدران هناك إفريز جميل من المرمر تزينه كتابات قيمة من الذهب.

ويربط بين جدران الكعبة والعمودين الداخليين قضيب معدني يقال إنه من الفضة، ويستخدم لتعلق به مصابيح من المعدن نفسه. كما يقال أيضاً: إنه توجد في الكعبة اثنتا عشرة معلقة للشعراء العرب الجاهليين.

وليست زيارة الكعبة من الداخل واجبة على الحجاج، وقبل البدء في فتح الكعبة، أي في اليوم الذي يسبق تطهيرها، فإنهم يضعون أمام الباب سلماً خارجياً من الخشب كي يتحرك عبر أسطوانات من النحاس. إن العبيد[1] الذين يحرسونها يطلبون مكافأة لمن أراد أن يصعد إليها، أما الدخول فيكلف مكافأة أخرى، وعند الخروج يقوم الخادم بتقديم مفتاح الباب لتقبيله مقابل هدية ثالثة. أما الحجاج الذين لا يستطيعون تلبية رغبات العبيد القائمين على المسجد، فإنهم يعاملون معاملة خشنة.

وكتوضيح لهذا الفصل، يستحسن أن نأتي هنا بالوصف الذي قدمه

(١) العادة التي بمقتضاها يقوم العبيد بحراسة الكعبة عادة قديمة، ويكونون سوداً من السودان وعددهم خمسون فرداً، يلبسون عباءة طويلة لها أحزمة من الجلد ومعهم عصي طويلة من الخشب الأبيض وعليهم عمائم بيضاء.

علي بك العباسي لطقوس فتح الكعبة وتطهيرها، وهي وثيقة غريبة:

"يوم الإثنين التاسع والعشرين، الموافق للعشرين من ذي القعدة تم غسل الكعبة وتطهيرها حسب الخطوات الآتية:

"بعد ساعتين من شروق الشمس يمر السلطان شريف مكة برفقة ثلاثين فرداً، واثني عشر حارساً من السود والعرب، وتكون الكعبة قد فتحت، ويحيط بها حشد كبير من الناس، لكن السلم لم يوضع بعد. ودخل السلطان الشريف فوق أكتاف البعض ورؤوس الآخرين إلى الكعبة، ومعه شرفاء القبائل الأساسيون، بينما أراد الآخرون الدخول لكن الحراس كانوا يمنعونهم باستخدام العصي والضرب بالقصب. وقد بقيت بعيداً عن الباب لتجنب الازدحام، عندما أمر الشريف رئيس زمزم علي بإشارة من يده بالتقدم إلى الأمام، لكن كيف سأتقدم من بين ألف شخص كانوا أمامي؟

كان كل حاملي الماء في مكة يتقدمون بقربهم المليئة بالماء، فكانوا يمررونها من يد إلى أخرى، لتصل إلى حراس الباب السود، بالإضافة إلى كمية كبيرة من المكانس من سعف النخل.

وبدأ الحراس السود برش الماء على أرض الكعبة المعمولة من المرمر، كما كانوا يرشون ماء الورد، وكان الحاضرون يجمعون الماء الذي يسيل عبر ثقب في عتبة الباب بلهفة، وبما أنه لم يكن يكفي للجميع حيث كان الناس البعيدون يطلبونه لشربه والغسل به؛ فإن الحراس السود كانوا يرشون به الناس بأيديهم وبالأكواب، ولقد مكنوني من غراف صغير وكوب شربت منه ما استطعت، وأهرقت الباقي فوقي، لأن ذلك الماء، وإن كان متسخاً فهو مبارك، بالإضافة إلى أنه كان معطراً بماء الورد.

قمت حينئذ بمجهود كبير للاقتراب، فحملني كثير من الناس فوق الحشد، وفوق الرؤوس، فاستطعت أن أصل أخيراً إلى الباب حيث ساعدني الحراس والسود على الدخول.

لقد تهيأت لهذه العملية، فلم أكن ألبس سوى قميص وعباءة صوفية بيضاء دون أكمام، بالإضافة إلى الإزار الذي كان يلفني.

كان السلطان الشريف يكنس الأرض بنفسه، فنزع الحراس عني اللحاف، وقدموا لي مكانس صغيرة أخذت بعضها بيدي، وحينها أهرقوا ماءً غزيراً على البلاط، وبدأت أكنس بيدي بإيمان قوي، مع أن الأرض كانت نقية ولامعة كالمرآة. وأثناء ذلك كان الشريف الذي انتهى من الكنس والتعطير يصلي. ثم بعد ذلك أعطوني كوباً فضياً مملوءاً بخليط من الصندل، ذلك الخشب العطري والمعجون بخلاصة الورد، فقمت بنشر ذلك العجين في الجزء الأسفل من الجدار المرصع بالمرمر تحت الفرش الذي يغطي الجدار والسقف، ثم أعطوني بعد ذلك قطعة من خشب الألوة الذي أحرقته في مجمار لتعطير المبنى.

وحينئذ أعلن السلطان الشريف أنني "خادم بيت الله الحرام"[1] وتلقيت التهنئة من كل الحاضرين. ثم صليت بعد ذلك في الزوايا الثلاث من البناية - مثل المرة الأولى - وبذلك انتهت كل التزاماتي، وأثناء ذلك كان السلطان قد غادر المكان.

كانت مجموعة من النساء اللواتي تجمعن بعيداً عن باب الكعبة يطلقن صرخات قوية من الفرح.

لقد أهدونا قليلاً من عجين الصندل ومكنستي التي احتفظت بهما كأثرين ثمينين، وقد أنزلني الحراس فوق الناس الذين أنزلوني بدورهم إلى الأرض،

(١) وردت هكذا بالعربية مع ترجمة لها باللغة الإسبانية.

وهم يوجهـون إلي عبارات التهنئـة، ثم وضعوا عليّ إزاري وعـدت إلى البيت مبللاً تماماً.

كما أن خدامـاً آخرين أتوا لي تباعاً بماء الغسيل كـما بعث إلي ابن الشريف الذي كان لديه مفـتاح الكعبة بكأس قرنيـة مملوءة بالصندل المعجون بماء الورد، وقرناً آخر يحتـوى على عدة عطور وشمعة، ومكنستين صـغيرتين. وكان علي أن أرد الجميـل بأحسن طريقة ممكنة".

النشيد الرابع والخمسون:

كيف أحدثكم عن الصلاة
كانت منظمة حسب المذاهب
إذ كانوا يقيمونها
بجوار المقام
هكذا بالتوالي
بعد تحية السلام.

النشيد الخامس والخمسون:

يصلي الأول
مع جماعته
فيما ينتظر
الآخرون دورهم
فكان الشافعي أولهم
ثم أبو حنيفة
والإمام مالك بعده
وأخيراً ابن حنبل.

النشيد السادس والخمسون:

أما الجمعة، اليوم الكبير

حيث تقام الصلاة ظهراً

فإن الإمام الشافعي

هو الذي يؤمهم

وبيده عصا

وتحيط به

أتباع المذاهب الأخرى مجتمعة.

النشيد السابع والخمسون:

يقيم الشافعي

الصلاة جهة الغرب

فيما يقيمها

أبو حنيفة في الوسط

وكان إمامنا مالك

جهة الشرق

والإمام ابن حنبل

جهة الشمال.

يشير النشيد الثاني والخمسون إلى شعائر الحج، وفيه يتحدث بوي مونثون عن أبواب المسجد، وعن الطواف سبع مرات حول الكعبة. يقول الدكتور صالح صبحي في كتابه الأخير حول الحج في الإسلام طبقاً للسنة النبوية: على

الحجاج أن يدخلوا من باب السلام، ويأتوا أمام الكعبة ويقبلوا الحجر الأسود بكل احترام. ويبدأ المطوف[1] بقراءة هذا الدعاء الذي يردده معه الحجاج أثناء الطواف: "الله أكبر ملك السماوات والأرض.. تصديقاً.. وإيماناً..".

وتكون الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف هرولة، ثم يتوجه الحجاج بعد ذلك إلى الصفا والمروة، وبعدها يعودون إلى الحرم ويصلون أمام "مقام سيدنا إبراهيم"، ثم يدخلون أخيراً إلى المبنى الذي يوجد به بئر زمزم يقولون فيه أدعية أخرى، ويشربون الماء مرات عديدة، وبذلك تنتهي الشعائر الأساسية للحج.

إن الشعائر التي تقام جماعة من طرف كل مذهب نجد ذكراً لها في الأناشيد الأربعة.

وكل "مذهب مع جماعته" يقف في المكان المخصص له، بدءاً بمذهب الإمام الشافعي جهة الغرب.

ولد محمد بن إدريس الشافعي في غزة، وكان متضلعاً من علوم الفقه والشريعة، كان يقضي ثلث الليل الأول في العبادة، والثلث الثاني في الدراسة والثلث الأخير في النوم. وكان يقول: إن من يحب الله ويحب الدنيا في الوقت نفسه فهو كاذب، وقد انتشر المذهب الذي أسسه بصفة خاصة بين العرب، وتوفي الشافعي بالفسطاط بمصر سنة ٢٠٤ هجرية.

ويوجد جنوب الكعبة مكان أتباع مذهب أبي حنيفة، وهو المذهب العقلي الإسلامي. وقد مات مؤسسه في السجن في بغداد عندما رفض وظيفة القضاء

(١) عند وصول الحجاج إلى مكة، فإنهم يأخذون مطوفاً للقيام بالشعائر المفروضة، ولكل دولة إسلامية مطوفوها الخاصون بها. وهكذا نجد مغاربة وسوريين وأتراكاً ومصريين.. إلخ. وبالإضافة إلى وظيفتهم الدينية، فهم مترجمون مسؤولون عن مواطنيهم.

قائلاً: "لا أريد أن أكون قاضياً لأنني لا أريد أن يحاكمني أحد". وقد قرأ القرآن في زنزانته سبعة آلاف مرة، ومذهبه عند العثمانيين وفي بلاد القسطنطينية.

"إمامنا مالك" يقول النشيد الذي يتعلق بأبي عبد الله مالك بن أنس المولود بالمدينة، وهو الذي أسس المذهب التقليدي الإسلامي الذي كان يتبعه الأفارقة والمسلمون الإسبان، وقد توفي سنة ١٧٩هـ (٧٩٥م) خلال خلافة هارون الرشيد.

أما المكان المخصص لمذهب ابن حنبل فكان يقع جهة الشمال، وقد ولد أحمد بن حنبل بمرو حيث درس وذاعت شهرته، وكان يعرف أكثر من مليون حديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم). وقد التزم التزاماً صارماً بالتعاليم، وكان لديه أتباع في بغداد أرادوا أن يمنعوا كل ترف، وهكذا اختفت الخمر والمغنيات وآلات الموسيقى، وعند موته سار في جنازته ثمانون ألف رجل وستون ألف امرأة، أما اليوم فلا يكاد يوجد لديه أتباع خارج الجزيرة العربية.

هذه هي المذاهب الإسلامية الأربعة، وكلها تعد سنية، وسميت كذلك لأنها تعتني بمجامع الحديث التي تعد مكملة للقرآن[1]، فيما يرفض الشيعة الكثير منها، ويبتعدون كلياً عن اتباعها. والشيعة يعدون من أنصار علي صهر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهم كثيرون ببلاد الفرس.

وعن وصف الصلاة التي يقيمها المسلمون جماعة حسب كل مذهب، يقدم الموريسكي تفاصيل عجيبة يمكن أن نكوّن من خلالها حكماً على ذلك المشهد العجيب داخل الحرم الكبير.

كان كل مذهب يبدأ بإقامة الصلاة، ويكرر الإمام مرتين "قد قامت الصلاة"، وذلك حسبما جاء عند إمام شقوبية عيسى جديع (Isa Jedih)، ولم

(١) الحديث النبوي الشريف هو شارح ومبين لما جاء في القرآن الكريم وليس مكملاً له، كما جاء في النص.

تكن هذه هي العبادة الوحيدة، فعند مقام إبراهيم يدعى[1] بهذا الدعاء: "هذا مكان من بفضلك أعتق من النار[2]. رب اغفر لي وارحمني فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة ".

وبعد الانتهاء من الصلاة يسلم الإمام، فيأخذ الدور المذهب الذي يليه، والتسليم معناه أن يقول الإمام أو المصلي: السلام عليكم ورحمة الله.

إن أحد الموريسكيين من أراغون قد ألف مؤلفاً بعنوان: "فرائض الصلاة" يقول فيه: "إن التسليم يعني الانتهاء من الصلاة، وهو واجب، وبما أن الصلاة لها بابها ومفتاحها، فإن باب الخروج منها هو التسليم، وإذا نسيه المصلي فإن صلاته لا تعد كاملة.

وحسب الفرائض الإسلامية، فإن الصلاة تصح بأحد عشر شرطاً: النية، واللباس الطاهر الذي يستر العورة، وعلى المرأة أن تستر جسدها، والطهارة من الحدث، والوضوء، والوقوف عند الاستطاعة، والتكبير، واستقبال القبلة، وقراءة الفاتحة، والركوع، والسجود، والتسليم.

أما في صلاة الجمعة[3] ـ وهو يوم عيد عند المسلمين ـ فإن الحرم المكي يأخذ شكلاً آخر، فتقام صلاة الجمعة على مذهب الإمام الشافعي، وصلاة الجمعة تقام في كل المساجد والجوامع، وتحيط المذاهب الأخرى بالشافعيين الذي كانوا "يرفعون العصي وسيوفهم خارج الأغماد"، مما كان يضفي على الجو نوعاً من

---

(١) مجموعة أهم الفرائض من السنة والشريعة، وهو كتاب نشرته الأكاديمية الملكية للتاريخ ضمن MEMORIAL HISTORICO ESPANOL المجلد الخامس.

(٢) يقول المشارقة بأن النمرود أمر بقذف سيدنا إبراهيم في فرن مشعل، لأنه كان يدعو إلى عبادة إله واحد، وقد خرج من النار سليماً دون إصابته بأذى.

(٣) بالنسبة إلى المسلمين تعد الجمعة يوم عيد، لأنه اليوم الذي خلق فيه الإنسان.

الحماسة عند القبائل المسلمة.

إن صلاة الجمعة فرض عليهم كما هي فرض على كل أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وتشتمل على الخطبة التي يلقيها الإمام على المنبر وعلى شعائر أخرى. وكلها تكون مصحوبة بالدعاء والتسليم.

النشيد الثامن والخمسون:

الكتابة عن هذا البيت

لا تنتهي

إذ لا يمكن وصفه

فهو بيت فريد

شريف، رائع وبهي

والأشياء الموجودة به

لا نظير لها

في كل العالم.

النشيد التاسع والخمسون:

زرت الكعبة

وقمت بالإحرام

وزرت الحجر الأسود والمقام

وبئر زمزم

ذلك الماء الحقيقي

الذي يشفي ويغسل

الذنوب والنسيان.

إن بوي مونثون في هذين النشيدين يبحث عن مفرداته ليقدم ملخص زيارته للحرم المكي. وبعد أن قال: إنه لا يوجد شبيه له في العالم، يذكر الأشياء التي زارها من جديد: الكعبة، الحجر الأسود، ومقام إبراهيم، وبئر زمزم، الذي هو أحد الأماكن المهمة بالنسبة للمسلمين. لقد تحدثنا عن موقع البئر داخل الحرم، وكيف أنه بني فوقه مبنى يغطيه حيث يوجد المكان المخصص للمذهب الشافعي نظراً لأهميته في مكة. وعلى ما يبدو فإن سبب وجود هذه المدينة هو بئر زمزم الذي يعد البعض ماءه عذباً يشبه الحليب، بينما يجده الآخرون ثقيلاً وصحياً. ويعده البعض الآخر شفاءً لكل داء، ويغسل الذنوب والخطايا كما يقول حاجنا.

وتقول إحدى الروايات المعروفة عند العرب: إن سيدنا إبراهيم (صفي الله) كما يسمونه ذهب للدعوة إلى الحق، وترك عبادة الأصنام في كثير من البلدان من بينها بابل وسوريا وفلسطين ومصر.

وفي هذه الرحلة أتى بجارية تسمى هاجر وقد رزق منها بإسماعيل، ولكن زوجته سارة نالت منها الغيرة، فقاد إبراهيم - بأمر من ربه - الأم ووليدها إلى مكان سيصبح فيما بعد المكان الذي بنيت فيه مكة، وكان ذلك المكان صحراء قاحلة.

وكاد الطفل يموت من شدة العطش أمام عين أمه التي امتلكها الحزن، فضرب الطفل الأرض برجليه، ففاضت عين جارية أصبحت أصل بئر زمزم.

وقد عاد إبراهيم لرؤيتهما أكثر من مرة، وفي إحدى المرات أبلغ إبراهيم أمر ربه بإعادة بناء الكعبة التي أقامها آدم، وعندما شرعا في العمل أرادا تحديد الزاوية التي ستقام فيها بعض الصلوات، فأتاهما الملك جبريل بحجر شديد البياض، وهو ما يعرف بالحجر الأسود.

وحسب المسعودي فإن بئر زمزم التي دفنت خلال عدة سنوات بسبب الغزوات، عمل على حفرها من جديد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الذي كان من أعظم رجال مكة. وقد نذر نذراً إن رزقه الله عشرة أولاد أن يعثر على البئر التي بقيت ذكراها محافظاً عليها من جيل إلى جيل، كما نذر عبد المطلب إن رزقه الله عشرة أبناء أن يذبح أحدهم.

ومر بعض الوقت، ووجد البئر ولم يرزق بعشرة أبناء فقط بل باثني عشر، وجاء موعد الوفاء بالنذر، فجمع أولاده وأخبرهم بذلك، فوافقوا جميعهم وذهبوا إلى الكعبة، وأمام هبل قاموا بضرب القداح، فكان عبدالله الابن المفضل عند عبد المطلب هو الذي خرج عليه السهم، وكاد عبد المطلب ينفذ الأمر لولا أن القرشيين أمسكوا ذراعه ونصحوه بأن يستشير عرافة خيبر، فسألها عن الفدية التي يجب أن تؤدّى عن القتل، فقالت إنها عشر من الإبل، فضرب أيضاً القداح عليه وعلى الإبل، فكان يخرج دائماً على عبد الله، وكان كل مرة يزيد عشرة جمال إلى أن بلغ عشر مرات، فأصبحت الفدية التي أداها عبد المطلب عن ابنه عبد الله مائة جمل، فجرت السنة بين العرب في الدية مائة جمل. وبعد هذا الحدث زوج عبد المطلب ابنه بآمنة بنت وهب وهما والدا محمد (صلى الله عليه وسلم).

أما فيما يخص بئر زمزم، فقد أخرج منها كنز من الجواهر والذهب والأحجار الكريمة مع سبعة سيوف وخمس دروع كبيرة. ومن هذه السيوف صنع باب الكعبة وغطوها بسبائك من الذهب، وتركت الأخرى بالكعبة واختفت عندما هاجمها اللصوص(١).

وتشرح الرواية العربية بهذه الطريقة اسم بئر زمزم، فتقول: عندما ضرب

(١) انظر مروج الذهب.

إسمـاعيل الأرض بقـدمه نبع الماء بغزارة وبقـوة، وخوفـاً من أن تغرق الأرض كلها كان عليه أن يصيح: زم، زم " بمعنى "ضاق، يضيق" وهذا ما تعنيه هذه الكلمـة، ويذهب آخـرون إلى أن كلمـة "زمزم" تعني "المـاء الذي يخرخـر" ويبدو أنها الأقرب إلى الصواب.

ويصل عمق البـئر إلى عشـرين متراً، بينمـا لا يتعدى قطرها ثلاثة أمـتار، وعلى جانبها مـرمر أبيض. ويخرج الماء من ثلاثة جرارات مشـدودة بحبال بها ثلاث قرب من الجلد.

ويحيط بالبئر المبنى المستطيل الذي أشرنا إليه، والذي غطيت جدرانه المشيدة بالمرمر بكتابات جميلة. وقرب البئـر يوجد أيضاً خزان من المرمر، حيث يجمع الماء المستخرج الذي يوزع على الحجاج عند نافذة، وليس مجاناً كما يقول علي بك العبـاسي. ويقول في هذا الصدد: إن كل مسلم يزور مكة يـوزع ما يقرب من ألفي فرنك بين أولئك الناس خدام الحرم.

ويمكن أن نتعـرف إليهم عبـر سرد حكاية الزيارة التي قـام بها إلى السلطان الشريف الذي يحكم الـبلد الحرام، تلك الزيارة التي قام فـيها رئيس بئـر زمزم بدور بارز.

"في مساء ذلك اليـوم نفسه تلقيت خبـراً أنه علي أن أكون مستعـداً للمثول أمام السلطان الشريف، جاءني نقيب الأشراف ورافقني إلى القصر، صعد أولاً وبقيت أنا في الباب أنتظر الإذن بالدخول، وبعد لحظة نزل إلي رئيس بئر زمزم الذي صار صديقاً لي، صـعدنا الدرج الذي كان يتوسطه باب لمنع المرور، نادى مرافـقه، ففـتح له الباب حارسـان مسلحان، وبعـد أن خلعنا نعلينا دخلنا إلى صالون جمـيل حيث كان السلطان الشـريف الذي كان يسمى "غالبـاً" جالساً بجوار النافذة يحيط به ستة أشخاص واقفون.

" وبعد أن حييته سألني هذه الأسئلة:

- هل تعرف العربية؟[1]
- نعم سيدي
- والتركية؟
- لا، يا سيدي
- تعرف العربية فقط؟
- نعم، سيدي
- هل تتكلم لغة المسيحيين؟
- بعضها
- ما هو وطنك؟
- حلب
- هل خرجت وأنت صغير من وطنك؟
- نعم سيدي
- أين كنت مدة غيابك؟

حكيت له قصتي، وعندئذ قال للشريف الذي كان جالساً إلى يساره: "إنه يتكلم العربية جيداً، فنبرته عربية حقيقية".

لقد تابعنا المحادثة لمدة ساعة أو تزيد، وبعد أن قدمت له هديتي انسحبت برفقة رئيس بئر زمزم الذي قادني إلى البيت، وقبل أن أواصل الحديث أود أن أعرّف بصاحب هذه الشخصية المهمة الذي أصبح صديقاً لي.

كان شاباً يبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة أو أربعاً وعشرين، وكان وسيماً ذا عينين جميلتين، أنيقاً، ذا هيئة طيبة وبارزة، وأخيراً كانت تبدو على

---

(١) كان الشريف يعتقد أنني تركي.

ملامحه كل الصفات الخارجية التي تجعل منه إنساناً محبوباً. وقد وضع فيه الشريف كل ثقته بحيث كان هو رئيس الجلادين، اهدأ أيها القارئ، ولا يجعلك الخوف ترتعش من هذا الاسم، هذا الرجل الخطير كنت أعرف ذلك عنه منذ المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى زمزم؛ إذ كان يهتم بي ويقدم إلي مأدبة وفي كل يوم كان يرسل إلي غرافين من ماء زمرم العجيب، وكان يتجسس علي ساعات ذهابي إلى الحرم، وكان يأتيني لكي يقدم إلي بكل حفاوة كأساً من الماء الذي كنت أشربه دون تردد حتى آخر قطرة.

وكان يلزم نفس التصرف مع كل الباشوات والشخصيات المهمة التي كانت تأتي إلى مكة، وبسبب أي شبهة خفيفة كان يقضي على الأجنبي، فكيف إذن لي برد الماء المقدم من طرف رئيس زمزم الذي يملك حياة الحجاج.

النشيد الستون:

وشاء حسن طالعي

أن أزور طواعية

زوجة حبيبنا

التي كانت تسمى خديجة

بنت خويلد

وقد شرفها القدير

بضريح جميل

حيث الهدوء الكبير.

النشيد الواحد والستون:

رأيت أين أقيمت

أول صلاة وأول أذان

في جهة تسمى حي حسين

وزرت بيت النبي

البيت الحقيقي

وبيت خديجة

زوجته الأولى.

النشيد الثاني والستون:

وبيت أبي بكر

الرجل الصديق

وبيت علي

هذا الشجاع المحنك

كما رأيت الرحى

التي طحنت فيها فاطمة

وكل هذه الأشياء

تسر وتطمئن.

يتعلق النشيد الستون بخديجة أولى زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي تزوجها بعد أن أصبحت أرملة، إنها بنت خويلد التي رزق منها كل أبنائه باستثناء إبراهيم الذي رزقه الله من ماريا القبطية، وقد توفيت خديجة بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة ويوجد قبرها بالمقبرة المسماة المعلاة. كما رأى حاجنا المكان الذي أقيمت فيه الصلاة لأول مرة وأذن فيه أيضاً لأول مرة.

وتشير هذه الأناشيد إلى أن حاجنا رأى أن الصلاة والأذان قد أقيما معاً في

الزمان والمكان نفسيهـما، والحقيقة أن أصلهما مخـتلف، فقد أجمع المسلمون ـ على ما يبـدو ـ على أن الصلاة قد بدأت في حراء بالقـرب من مكة، بينما بدأ الأذان في المدينة بعد الهجرة.

ويقول الرواة: إن أول مـا نزل من القرآن كان في غـار حراء وهي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢]. وقد جـاء بها جبريل في ليلتي السـبت والأحد. وفي اليوم التالي حياه جـبريل برسول الله، وفي الوقت نفسه الذي أوصى إليـه بتتمة السورة قـام بتلقينه الصلاة ـ التي هي الركن الأساس في الإسلام ـ بواجباتها التي ذكرناها سابقاً.

هكذا بدأت الصلاة، أمـا الأذان فله أصل آخر، فقد أبلغ عـبد الله بن زيد النبي محمداً صلى الله عليه وسلم كلمات يقول: إنه تلقاها في منامه عن كيفية نداء المؤمنين إلى الصلاة، فطبقها وهو بالمدينة في السنة الهجرية الأولى.

وقد كان بلال أول من أذن في الإسـلام، وبذلك يظهر أن الصلاة بدأت في مكة بينما بدأ الأذان في المدينة.

ويمر موريسـكينا بعد ذلك إلى ذكـر زيارته لبيت النبي، ويعني البـيت الذي عاش فيه النـبي. كان مبنى دائرياً، يوجد به بلاط من ثمانية أمـتار إلى الأسفل على المستوى الخـارجي. وقد أظهرت حفرية صغـيرة المكان الذي توجد به آمنة أم الرسول عندما ولدته في الثامن من ربيع الأول سنة ٥٧١م [١].

وكان البيت لابن يوسف، وتحول إلى مسجد من طرف الخيزران أم الخليفتين المهدي والرشيد.

إن البيوت التي سكنتـها خديجة والخلفاء الراشـدون أبوبكر وعلي كانت أيضاً

(١) حسب النص وهو خطأ

محل زيارة الحجاج. ومعلوم أن أبا بكر خلف محمداً صلى الله عليه وسلم، كما كان علي أول من آمن به من الصبيان، كما كان صهر النبي، إذ تزوج بفاطمة، وكان الخليفة الرابع، وقد تولى الخلافة من ٣٥هـ إلى ٤٠هـ. (٦٦٠-٦٦٥م).

وكل هذه الآثار التي تعوّد الحجاج على زيارتها كبيت أبي طالب، والمكان الذي سقط فيه الحجر وضريح فاطمة كانت قد هدمت كلها في نهاية القرن الثامن عشر؛ لأنها عُدَّت من البدع. كما ضاعت الرحى التي كانت تستعملها فاطمة لطحن القمح، والتي بعثت السرور في نفس حاجنا.

وغريب أنه لا يشير إلى السعي سبعة أشواط بين الصفا والمروة، والذي قام به دون شك لكي يكتمل حجه، حسبما جاء به القرآن. وتوجد هاتان الربوتان داخل المدينة، وتبعد الواحدة عن الأخرى خمسين متراً، وتتصل ببعضها بالممر الرئيس. وهناك إشارة إلى النقطة التي يجب أن يكون فيها المشي بسرعة، وهو يذكر بألم هاجر أم إسماعيل التي قطعت هذه المسافة وهي تطلب من الله أن ينقذ ابنها.

وبهذا الطواف وحلق الرأس ينتهي الحج إلى مكة، والذين أدوه يعودون إلى الحياة العادية، ويستعدون للعيد الذي يقام بجوار مكة.

النشيد الثالث والستون:

زرنا كثيراً من الجبال

منها جبل أبي قبيس

حيث انشق القمر

وصعدت إلى حراء

ذي المكانة الكبيرة

حيث نزع الغل

من قلب محمد.

النشيد الرابع والستون:

كما زرت جبل ثور

حيث التجأ النبي وصحابته

يوم أن تبعهم

الأعداء القرشيون المنافقون

ذهبوا إلى غار

من حجر زجاجي

حيث يوجد بجانبه

الجزء الذي اقتطعه جبريل.

وبعد زيارة الحرم والسعي بين الصفا والمروة، فإن المسلم الذي يرغب في إكمال شعائر الحج عليه أن يقوم بالأشياء الآتية:

- لبس الإحرام لمدة ثلاثة أيام، وزيارة جبل عرفة، والمبيت في منى، والعودة إلى مكة.

- يحضر يوم التاسع من ذي الحجة الخطبة في عرفة، ويزور منى في الليل، ثم يصلي المغرب والعشاء في مزدلفة.

- يستمع إلى الخطبة في صباح اليوم التالي.

- يرمي سبع جمرات.

- يقوم بذبح الفدية يوم عيد الأضحى كبشاً كان أو جملاً.

- يعود إلى مكة ويصلي أمام الكعبة.

وقد قام حاجنا الموريسكي بكل هذه الشعائر، ومن الصعب أن نجد لدى الرحالة المعاصرين الدقة نفسها التي وصف بها بوي مونثون الحج والشعائر التي يقوم بها.

وباتجاه عرفة يذكر جبالاً من بينها جبل أبي قبيس، الذي قال عنه: إن القمر انشق، واستجاب فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم[1]. ويؤكد آخرون بأن القمر انشق إلى جزأين، وكما يقال أيضاً بأن هذا أول جبل خلقه الله على الأرض.

ويتحدث النشيد نفسه عن المكان الذي كان يوجد فيه محمد عندما فتح جبريل صدره للإيمان والعلم بعد أن نزع منه قطعة دم أسود.

ويقول مفسرون آخرون: إن محمداً بينما كان يلعب مع أقرانه من الصبية ـ كان يبلغ من العمر آنذاك أربع سنوات ـ جاء رجلان مجهولان فأضجعاه على الأرض، وفتحا صدره، ونزعا "النقطة السوداء" ثم غسلا قلبه بماء الثلج.

وهاتان الروايتان نجد لهما ذكراً في الآيتين من سورة "الانشراح" ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ**﴾ [الشرح: ١ - ٣].

يشير النشيد الرابع والستون إلى كهوف جبل ثور التي أسماها مونثون (سورة) والتي توجد على بعد ثلاثة أميال من مكة.

لقد دبر القرشيون مكيدة ضد محمد، ولما علم بالخبر خرج من باب آخر من منزله تاركاً عليّاً في فراشه. وكان يرافقه أبو بكر، وعربي يسمى عبد الله. خرج أهل قريش مباشرة للبحث عنه، ولكنه كان قد التجأ إلى مغارات في جبل ثور.

وتقول الرواية العربية حول هذا الحدث التاريخي الذي بدأ به التاريخ

(١) كان ذلك لَمَّا طلب أهل مكة من الرسول ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين. وكان هذا من معجزاته ﷺ.

الهجـري: إنه عند مدخل المغـارة قامت حـمامة بإنشـاء عشهـا ووضعت فـيه بيضها، كـما نسجت عنكبوت بيتاً على ذلك المدخل. وهذا مـا أنقذهـم فعلاً، لأنهم اعتقدوا أن البحث في ذلك المكان غير ضروري، فمن يستطيع أن يدخل تلك المغارة دون تكسير البيض أو تخريب شـباك العنكبوت؟ أما الرواية المتعلقة "بقطعة الزجاج" التي اقتطعها جبريل فهل هي أصل "الحجر الأسود"؟

النشيد الخامس والستون:

في جبل عرفة

حيث تجمعت الجيوش

والتقى أبوانا

آدم وحواء

حين أخرجا من الجنة

بسبب معصيتهما

وفي نفس هذا الجبل

رزقا ببنات وبنين.

النشيد كله يتحدث عن جبل عرفة الواقع على بعد اثني عشر ميلاً من مكة، تقول الرواية العربية حوله ما يأتي:

عندما أخرج آدم وحواء من الجنة بعد أن أكلا من الشجرة المحرمة، تاها وقتاً كبيراً مفترقين حيناً ومجتمعين آخـر، وقلباهما مليئان بالحزن والندم. كانا يسيران دون هدى في طرق مختلفة، إلى أن التقيا في جبل عـرفة. فكفكفا دموعهما، وشجع كل واحد منهما الآخر، واتفقا على ألا يتركا فقدان الأمل والأسى ينال منهما.

وهناك سارية من المرمر تشير إلى مكان هذا الحدث.

كل المسلمـين الذين يزورون هذا المكان يرون أنهـم قـد عـادوا إلى البـراءة الأولى، وأن ذنوبهم قد غـفرت. كما يقولون: إن الله أعطـى لهذا الجبل هذا الامتـياز العـجيب، لأن الإنسـانية ولدت هنـا من جديد عـبر الغفـران والألم والحب. فعلى ماذا تعتمد هذه الرواية؟

ثم هناك سبب آخـر يجعل من عرفـة مكان زيارة وتعبـد من قبل المسلمين، وهذا يرتكز على أسس تاريخـية. لقد كانت السنة الـعاشرة من الهجـرة عندما أراد محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يختم دعوته بحج كبير إلى الكعبة. وقد خرج مـن المدينة يتبـعه أكـثر من مائـة ألف من المؤمنين، ووصل إلى مكة في الرابع من ذي الحجـة. وقد صلى أمام الكعـبة واستلم الحجـر الأسود، وطاف سبع مرات، ومن هنا أصـبحت واجبة، كما صلى أمام مـقام إبراهيم، وسعى بين بالصفا والمروة.

وفي اليوم الثـامن من الشهـر نفسه ذهب إلى منـى وصلى خمســة أوقات، وبعد ذلك في اليوم التالي توجه إلى عرفة راكباً ناقته القصواء.

وعند وصوله صعـد إلى ربوة تطل على الجموع التي كانت تتبـعه، فخطب خطبة قـال في آخرها: "اللهم هل بلغت؟ فـأجابت آلاف الأصـوات: نعم قد بلغت" فأضاف قائلاً: "اللهم فاشهد".

وكان اليوم التالي يـوم الأضحية، وقد نحر محـمد (صلى الله عليه وسلم) ثلاثة وستين جملاً، وحرر ثلاثة وستين عبداً. وكان إذ ذاك يبلغ من العمر ثلاثاً وسـتين سنة. وتسمى هذه عـادة بحجـة الوداع، وبعـدها بشهـور قليلة توفي الرسول (صلى الله عليه وسلم).

هذه هي الأحداث التي خلـدها حاجنا في جبل عـرفة. وتحيط بهـذا الجبل

منطقة قاحلة، يغطيها رمل ذهبي ناعم. كما تحجب الأفق قمم الجبال البعيدة التي تتجلل بصفرة مائلة إلى اللون الأحمر عندما تلمع فيها أشعة الشمس. وفي أيام الحج تغطى هذه المنطقة بالعديد من الخيام، تلك الأهرام البيضاء التي تعطي لهذه الأرض الحياة، التي عادة ما تكون غارقة في وحدة تامة.

وقبل غروب الشمس بثلاث ساعات يكون موعد التجمع المعهود، فتنضم إلى الحجاج القادمين من مكة قوافل متعددة من كل أنحاء الصحراء، ويترأس الحفل شريف مكة الأكبر، محاطاً بالأئمة والشيوخ.

وعلى جمله المزين بالحرير والذهب يتوجه إلى مكان عالٍ في الجبل، ومن هناك يتوجه إلى الجموع داعياً الله بدعاء خالص، وفي الختام يلوح بقماش طويل من الحرير الأبيض، فيجيب الجميع:

"الله أكبر رب السماوات والأرض"

"إيماناً بك (وبنبيك) أتينا إلى هذه الأرض المقدسة"

"ها نحن هنا لنتذكر آدم وحواء، آباءنا الأولين".

ويحكي أولئك الذين حضروا هذا المشهد أنه ضخم للغاية. ويقول البعض بأن عدد الحجاج الذين يجتمعون بعرفة يقدر بحوالي خمسمائة ألف، خمسمائة ألف من بني البشر يعرضون أنفسهم لكل أنواع التعب، بل وربما للموت لإحياء ذكرى هذه الشعيرة، إنه لغز لا يسبر غوره(١).

وينتهي الوقوف بعرفة بأغرب شيءٍ يمكن تصوره، ففي لحظة ينتهي جلال ذلك المشهد فيتبعه صخب كبير. إن ذلك البحر الهادئ من الخيام ومن البشر

(١) هذا الكلام فيه تطاول على الإسلام وجهل بأحكامه؛ ذلك أن الوقوف بعرفة ركن أساس في الحج، بل إن هذا الوقوف يجعلنا نستشعر عظمة الحج الذي يقوم به المسلمون الوافدون من كل بقاع المعمورة.

المرتدين للباس بألوان مختلفة، والألوف من الجمال والحمير والخيول ووسائل النقل من كل نوع يتحرك بسرعة العاصفة وقوتها، ليبدأ المسابقة نحو نقطة معينة.

وخشية ضياع الحج، فإن تلك الموجة البشرية يجب أن تؤدي صلاتي المغرب والعشاء[1] بمزدلفة. وعليه فإنهم يضطرون إلى الإسراع بالانطلاق مارين بين واد ضيق جداً، وبين عمودين يبتعدان عن بعضهما ستة أمتار.

تلك الجموع هي بمثابة اندفاع شلال هائل، لا يمكن تفسير ما يجري هناك. رجال ونساء وأطفال يسيرون بأمتعتهم وجمالهم، ويتسارعون في الوقت نفسه إلى ذلك الممر الضيق. إنه لمن المستحيل تجنب الحوادث جراء ذلك. إن ثلاثين شخصاً أو أربعين يموتون كل سنة بسبب تدافع الناس في هذا المكان، وكلهم يخرجون متعبين وبكثير من الرضوض.

وبينما يحدث هذا تسمع الدفوف والطلقات النارية، بل وحتى أضواء الألعاب النارية تلمع في السماء.

وأثناء تلك النفرة كان كل حاج يحاول أن يتمكن من جمع سبع حصيات يحتفظ بها حتى الوصول إلى مزدلفة.

النشيد السادس والستون:

وفي منى

وفي المكان نفسه

حيث كان إبراهيم

يود ذبح ابنه

(١) لكي يتمكن الحجاج من أداء صلاة المغرب عليهم أن يجتازوا خلال ساعة ونصف تلك المسافة التي تفصل عرفة عن مزدلفة والتي تقدر بحوالي ثلاث ساعات.

وفي المكان نفسه

الذي خرج فيه العدو

ليعتدي على إسماعيل

وأبيه إبراهيم الخليل.

إن الرواية العربية المتعلقة بمنى توجد كلها في النشيد السابق. فالحجاج يزورون هذا المكان تخليداً لتضحية إبراهيم ليس بإسحاق، وإنما بإسماعيل حسب المصادر الإسلامية، إذ همّ إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل، الولد المحبوب لدى هاجر، طاعةً لأوامر الله.

وراح الاثنان يبحثان عن مكان لتنفيذ الأمر، وظلت هاجر متألمة ومتوسلة. مشى إبراهيم وإسماعيل وقتاً طويلاً دون أن يتوقفا، إلى أن وصلا إلى الوادي المنعزل الوحيد، حيث توجد اليوم القرية التي تسمى منى، وهنا كان يجب أن يقوم بذبحه. وقد حاول ذلك، لكن الله لم يكن يريد سوى امتحان إيمانه، ففداه بذبح عظيم. وبالقرب من منى توجد بناية صغيرة تشير إلى المكان الذي ضحى فيه إبراهيم، وقد شاهد موريسكينا الحجر المشقوق بسيف أبي المسلمين.

وبجانب المزدلفة في وسط الوادي توجد ثلاثة جدران تشبه الأهرام، وهي ترمز إلى الشيطان.

ويرمي الحجاج عليها سبع حصيات يجمعونها عند عودتهم من عرفة. وبهذا أيضاً يقتدون بإبراهيم، الذي يقولون عنه إنه رجم الشيطان بحجر عندما خرج عليه لكي يجعله يتراجع عن ذبح ابنه الذي أمره الله به. ولذلك يردد الحجاج عند الرمي: "بسم الله".

لا يتفق الرحالة حول تفاصيل المكان التي يرمي فيه المسلمون الجمرات.

ويغادر الحجاج عادة عرفة وقت الغروب من التاسع من ذي الحجة وبعد ساعة ونصف يصلون إلى مزدلفة وهناك يصلون ـ كما سبق القول ـ المغرب والعشاء ويرمون الجمرات. ينامون في المخيمات، ثم يخرجون في الصباح إلى منى حيث يبدأ في اليوم نفسه عيد الأضحى.

توجد منى وسط جبال صخرية قاحلة ككل جبال الحجاز، وبها بعض المباني الجميلة تزينها شرفات جميلة جداً، وبها شارع واحد يصل طوله إلى ألف وستمائة متر.

ويتوجه آلاف الحجاج إلى الوادي كل سنة منذ عصور خلت لنحر العديد من الأضحيات من الكباش والمعز، بل الجمال أيضاً.

وتغطي الخيام في وقت وجيز كل الوادي، وفي الثالثة ليلاً تعلن طلقات المدفع انطلاق العيد. ويبدأ النحر في الوقت نفسه، وعلى كل حاج أن ينحر ولو كبشاً واحداً على الأقل، ولكن البعض منهم، حسب الاستطاعة، يذبحون أكثر من ذلك وربما بلغت أضحيات الواحد منهم الخمسين أو المائة. كما يوجد من يضحي بجمله وإن كان هذا أصبح نادراً.

على امتداد ثلاثة أيام لا يمكن أن يخطو الإنسان خطوة واحدة دون أن يرى ذبائح أو يمر فوق بقاياها. إذ يأخذ الحاج كبشه ثم يلقيه أرضاً أمام خيمته فينحره ثم يتركه، وقد لا يأخذ منه شيئاً لطعامه. وتتكفل السلطة المحلية بإخلاء المكان من تلك الأعداد الهائلة من الذبائح، التي قد تصل ـ حسب البعض ـ إلى تسعمائة ألف سنوياً. ومن السهل تصور الأخطار الصحية التي يسببها هذا الوضع، والأمراض التي يمكن أن تحدث بسبب تراكم تلك الحيوانات المتعفنة، بحيث لا تكفي الأوامر التي صدرت مؤخراً لدفنها في خنادق كبيرة.

إن القطعان الكبيـرة التي تأتي إلى منى من أجل النحر تصل منهكة ومتـعبة من المسافـات البعيـدة التي قطعتهـا، وبسبب الشمس المحـرقة، وقلة الكلأ في الصـحراء. وفي مـثل هذه الظروف يسـيـر الموت والتعـفن جنباً إلى جنب. ويتحول فضاء ذلك الوادي الضيق إلى مسبب للمرض والموت.

ومن جهة أخرى، فـإن تلك الكومة الهائلة من اللحم المتعفن والممـتلئة دماً وسوائل إذا دفنت يمكن أن تـتسرب عـبر الرمال، وهكذا فـإن مياه الصـهاريج تصبح غير صالحة للشرب.

وليس غريبـاً إذن بعد كل هذا أن تكون الكوليرا في منى أكـبر من أي مكان آخر في الـعالم. ثم هناك أسـباب أخرى، فـالقوافل القـادمة من الهنـد حيث الكوليرا مـستوطنة، والجـهل التام بالشـروط الصحيـة من قبل الحجـاج يجعل الصهـاريج التي يغتسلون فـيها، والتي لا يكون فـيها دائمـاً ماء كثـير، مكاناً لتخمير الميكروبات. إلى جانب اخـتلاط البشر من كل الفئات وممن ليس لديهم أية موارد، كل هذا قد يجعل من الحج خطراً على الصحة العامة.

وعلى الدول الأوروبية أن تتـخذ باسم الحضـارة والإنسانية مـا من شأنه أن يحد من تهديد صحة الشعوب وسلامتهم[(١)] .

ويوضح بجلاء هذه النقطة المهمة التي تشير إليها هذه الفصول الوصف الذي وضعه (دومينغو باديا) عن زيارته إلى كل من منى وعرفة.

وقد تزامن وجوده في هذه الأماكن بحضور عدد كبير من أتباع دعوة الشيخ

(١) هذه الاحتمالات غير واردة بتاتًا، فإن وقعت بعض الأمراض بين الحجاج في بعض مواسم الحج، إلا أنه لم يحدث أن وقعت كارثة صحية أو وباء يهـدد الصحة العالمية. وهذا الكلام فقط لإثارة شكوك الدول الأوربية واستعدائها لمحاربة هذا التجـمع العظيم لأداء فريضة الحج، استجابة من العلي القدير لدعاء إبراهيم عليه السلام ﴿واجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ [إبراهيم:٣٧].

محمد بن عبدالوهاب، وهو ما يضفي على السرد أهمية كبرى[1] .

"في جبل عرفة فقط يمكن أن نكوّن فكرة عن المشهد الهائل للحج عند المسلمين. فهناك وفود عديدة لأناس من كل الشعوب، ومن كل الألوان حيث يمد يده بالسلام ساكن القوقاز إلى أسود من غينيا، ويسلم الهندي على الفارسي والمغربي، ويتكلمون كلهم اللغة نفسها، أو على الأقل فإنهم يفهمونها، لأنهم تحركهم نفس المشاعر.

وجبل عرفة هو صخرة من الغرانيت يبلغ طولها مائة وخمسين قدماً يشدها نسيج من الأسوار، وتوجد في سفح جبل أكثر طولاً، كما يوجد جهة الجنوب الشرقي سهل تحيط به كثير من الجبال القاحلة. وتصعد مرة عبر أدراج منحوته في الصخرة وأخرى مصنوعة من الحجارة. ويوجد في قمة الجبل مصلى لم أستطع أن أزوره؛ لأن الإمام مالك لم يبح ذلك. وهكذا فإننا توقفنا وسط الطلعة لكي نصلي. وفي السفح توجد مساحة مهيأة لهذا الغرض يطلق عليها "جامع الرحمة" حيث كان النبي يصلي. ويوجد قرب الجبل أربعة عشر صهريجاً ليشرب منها الحجاج ويتوضؤوا. وفي الجنوب الغربي يوجد بيت الشريف، وعلى بعد منه يوجد مكان آخر يسمى "جامع إبراهيم" تقام فيه الصلوات أيضاً.

وفي جبل عرفة التقى أبو البشرية، وتعرف على أمنا حواء بعد فراق طويل. ولهذا السبب أطلق اسم (عرفة) على ذلك المكان. ويعتقد أن آدم هو الذي بنى ذلك المصلى الموجود بالقمة. وبعد صلاة العصر التي يؤديها كل واحد في خيمته يتم الاستعداد للرحيل إلى سفح الجبل وانتظار غروب الشمس.

---

(١) نتساءل: كيف استطاع أن يميز بين هؤلاء الحجاج وبين غيرهم من مختلف الأقطار الإسلامية.

والحجاج [من أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب] الذين كانوا يقيمون في مسافات بعيدة أخذوا في الاقتراب. وفي وقت وجيز حضرت مرور جيش من خمسة وأربعين ألفاً منهم يركبون الخيول أو الجمال مع ألف من الرجال يحملون الماء والخيام والعشب اليابس لجمال الرؤساء. وفرقة من مائتي فرس تحمل الأعلام من كل لون. وبسرعة امتلأ الجبل ونواحيه بهم، ثم التحقت بهم القوافل والحجاج الفرادى.

وكان السلطان الشريف قد أرسل - كما هي العادة كل سنة - ببعض جنده ومعهم أربعة مدافع.

وعادة ما يأتي كل سنة إمام يعينه الشريف لكي يلقي في الناس خطبة عن الجبل. إن الإمام الذي أتى ذلك اليوم تمت إقالته من الملك ابن سعود قبل أن يبدأ، وخلفه إمام آخر لم أستطع أن أسمع خطبته لأنني كنت بعيداً.

"وحينئذ كنا ننتظر غروب الشمس. ويا لها من فوضى عندما غربت. لنتصور أن حشداً من ثمانين ألف رجل، وألفي امرأة، وتقريباً ألف طفل، وستين أو سبعين ألف جمل وخيول وحمير يريدون أن يدخلوا كلهم بسرعة عبر الوادي الضيق، حيث كان يمشي البعض فوق البعض الآخر، وسحابة من الغبار وغابة من النبال والسيوف، وهكذا كنا نسرع الخطى كلّما تيسر، إلى أن وصلنا إلى مزدلفة بعد ساعة ونصف، بعد أن قضينا أكثر من ساعتين في الذهاب إلى عرفة. والسبب يعود إلى أنه لا يجوز أداء صلاة المغرب في عرفة، بل في مزدلفة، والشيء نفسه بالنسبة إلى صلاة العشاء التي تقام بعد ساعة ونصف بعد المغرب، وأسرعنا في تأديتهما قبل إقامة الخيام، وانتهى اليوم بالتهاني المتبادلة لقيامنا بالحج.

وفي اليوم التـالي أي العاشر من ذي الحجـة خرجنا متـوجهين إلى منى في الساعة الخامسة والنصف صباحاً .

وبمجرد وصولنا ذهبنا بسرعة إلى الجمرات التي توجد أمام النافورة. كان كل واحد منا يحمل سـبع حصيات بحجم الحمص، والـتي جمعناها ليلة أمس في مزدلفة لكي نرميها على الشيطان من أعلى الجدار.

وبما أن مكر الشيطان جعله يقـيم بيته في مكان ضيق قد لا يتـجاوز اتساعه أربعة وثلاثين قدماً، بالإضـافة إلى أنه يوجد مقطوعاً بصخرتين كـبيرتين حيث يجب الصعود لكي يتأكد الإنسان من رمي الجمرات داخله. وبما أن كل الحجاج يريدون أن يقـوموا بالرمي بمجـرد وصولهم إلى منى، فـإن المكان يحدث فـيه ارتباك غريب. ولكن بمساعدة مرافقي استطعت أن أقوم بالواجب وخرجت من هناك بجُرحيْن في رِجلي اليسرى. وبعد ذلك عدت إلى خيمتي للاستراحة من تلك المتاعب. وفي ذلك اليوم قمنا بنحر الأضحية.

وفي اليوم التالي ـ وقبل صلاة الظهر ـ ذهبنا لرمي سبع جمرات على سارية وسط شارع منى والتي حسب ما يقال فإنها من صنع الشيطان. كما رميت على سارية مشابهة كسابقتها وضعها مهندس معماري على بعد أربعين خطوة.

وعدت إلى مكة يوم الثاني عشر من ذي الحجة " .

النشيد السابع والستون:

مررنا عبر الوادي

حيث دمر أصحاب الفيل

ولأنهم كانوا كافرين

أرسل الله عليهم

طيراً أبابيل لعنة عليهم

ترميهم بحجارة كثيرة

وحيث صعد النبي إدريس

من هناك إلى السماء.

وبانتهاء ثلاثة أيام من الأضحى يعود الحجاج إلى مكة. ويذكر حاجنا نقطة مهمة في تاريخ الجزيرة العربية، وهي غزو الحبشة في القرن السادس الميلادي، وهم المشار إليهم بأصحاب الفيل في النشيد السابق.

إن ملك الحبشة أبرهة الأشرم نظم حملة على مكة، كان هدفه هدم الكعبة، وجعل الناس يفدون إلى صنعاء عاصمة ملكه.

وكان عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، الذي تحدثنا عنه، هو زعيم تلك المنطقة، ولكرمه ونبله فقد استطاع أن ينال تقدير الجميع تشريفهم، لقد كان هو شيخ مكة.

ولما رأى جيشاً عليه علامة الحرب أمام المدينة، ظن أنه من الواجب عليه الخروج للتفاوض مع زعيم العدو ومعرفة ما يريده.

تقدم إلى الغازي وعامله بكل تقدير بسبب ما يعلو رأسه وجبينه من هالة حسب الرواية الإسلامية.

وقال أبرهة لعبد المطلب: "اطلب ما شئت".

فقال عبد المطلب الذي سرق منه اليمنيون قطعاناً كثيرة بأن يردها إليه. فاندهش أبرهة لسماع هذا الطلب ورد قائلاً: "لماذا لا تطلب مني الرحمة بهذه المدينة وبالكعبة التي يهددها جنودي".

فأجاب عبد المطلب: "أنا أحمي إبلي، وللبيت رب يحميه". وعاد إلى

المدينة وهو يقـول: "يا أهل مكة لقد جـاء ليهـجم عليكم ملك بأفيـال يغطي أسنانها الزَّبَد".

وأوصى إذ ذاك القـرشيين أصـحاب المدينة أن يهـربوا من غضب الأعـداء، فعلق نعلاً بعنق الجمال وتركها تائهة وسط الحرم.

وبعد مدة وجيـزة ظهر في سرب عظيم طير أبابيل الشبـيهة بالخطاف. وكان مع كل واحد منها ثلاثة أحـجار، فكان يمطرها على جيش أبرهة بشكل مميت، فقضت تماماً على ذلك الجيش.

مات (أبـو رِغال) الذي كـان دليل ذلك الجيش وعـاد الملك أبرهة إلى بلده بإصبعين مبتورين.

كان يركب فيـلاً أبيض، فسمي بعد ذلك صـاحب الفيل وجيشـه بأصحاب الفيل، بل والسنة التي وقعت فيها هذه الغزوة، فإنها تسمى بعام الفيل.

إن وصول أبرهة إلى مكة كان يوم الإثنين ١٧ محرم سنة ٨٨٢ من الميلاد.

وكان انهـزام وموت جيش أبرهة حـسب موريسكينا في الوادي نفـسه الذي شهد رفع النبي إدريس قبل الطوفان.

النشيد الثامن والستون:

ماذا أقول عن المدينة
وتاريخها السعيد
مدينة نبينا الشريف
المدفون في مسجدها
وبجانبه قبران عزيزان
صاحباه في الحياة
وصاحباه في الممات.

النشيد التاسع والستون:

كما يوجد

بداخل الغرفة

قبر أبي بكر

وعمر الفاروق

أسأل الله تعالى

أن يجازيهم على فضلهم

وعلى ما قدموه للدين

إذ كانوا من السعداء.

النشيد السبعون:

وعند أقدام النبي

يوجد قبر زوجة علي

فاطمة ذات الفضيلة[1]

وذات المجد والإلهام

بنت النبي المختار

والتي نرجوا

أن يكون الدعاء لها

وسيلة لنا صالحة.

النشيد الواحد والسبعون:

وإلى جواره

(١) هذا جهل بالحقيقة؛ لأن السيدة فاطمة رضي الله عنها دفنت بالبقيع، وليس بجوار النبي ﷺ.

خارج الغرفة

بداخل المسجد

يوجد قبر

ذلك الرجل المتلألئ

إمامنا مالك[1]

الذي يعد الإمام الأكبر

هنا في كل الغرب الإسلامي.

النشيد الثاني والسبعون:

أما إبراهيم

الابن البار

لنبينا المختار

فإنه مدفون بالخارج

وقد وهبه الله إياه

وجعله من النقيين الأطهار

ولو أنه مات صغيراً

فقد كان من الأخيار.

إن العودة من الحج إلى مصر تتم عبر المدينة. وكانت القافلة تقطع المسافة في ثلاثة عشر يوماً. ويتكرر المشهد في كل المناطق: أراض شاسعة دون أي

(١) قبر الإمام مالك في البقيع، وليس بجوار قبر النبي ﷺ، وهذا يثبت عدم معرفة الحاج الموريسكي بالحقائق التاريخية؛ ذلك أنه ـ كما أشرنا ـ قد عانى الموريسكيون كل أنواع الاضطهاد، بما في ذلك عدم تداول الكتب الدينية لمعرفة أمور دينهم الإسلامي.

نبات إلا من العشب اليابس والشائك، وأودية ضيقة بين رَوابٍ قاحلة وبعض الواحات الخضر في عزلة رهيبة. ومن حين لآخر يوجد بئر تحيط به أكواخ سوداء متواضعة مصنوعة من أغصان الأشجار أو النخيل. وتحت سماء دائمة الزرقة والصفاء توجد المدينة المحاطة بأسوار قوية تعزلها عن رمال الصحراء، ومحمية بجبل أحد. هنا توجد مدينة الرسول العاصمة الثانية للإسلام، والتي تبدو بمبانيها البيض وبازاراتها على الطراز العربي وسكانها السمر ومسجدها الشهير.

ويسميها المسلمون "المدينة المنورة"، وهو اسم من بين خمسة وعشرين اسماً يطلقها المسلمون عليها.

وأمام الباب المسمى باب الجامع توجد ساحة المناخة، حيث تتوقف القوافل وبسرعة تبدأ الحركة والنشاط وتغطى بالخيام.

وعندما هاجر محمد صلى الله عليه وسلم من مكة تطارده قريش فتحت له هذه المدينة أبوابها، وابتداء من هذه الفترة أصبحت تسمى "مدينة النبي" بدلاً من يثرب.

وقد خرج خمسمائة من سكانها لاستقبال النبي الذي دخل راكباً ناقته تغطي رأسه المكشوف مظلة.

وقد وضع أهالي المدينة رهن إشارة الرسول صلى الله عليه وسلم منزلاً ومصلى، وتعد هذه المدينة منافسة لمكة في المجال التجاري.

ومنذ هذا التاريخ بدأ العمل بالتاريخ الهجري، أي ابتداءً من يوم الجمعة ١٦ يونية من سنة ٦٢٢ ميلادية، أول يوم من شهر محرم.

وفي يثرب التي تحولت إلى مركز جديد للدين الجديد توفي محمد (صلى الله عليه وسلم).

وقد حصل خلاف حول مكان دفنه. فبعضهم كان يريد دفنه في مكة وكان البعض الآخر يريد دفنه في القدس. وكان أبو بكر هو الذي حسم الأمر، مؤكداً أن الرسول ترك وصية تفيد بأن يدفن في المكان الذي يموت فيه.

ويذهب الحجاج إلى المدينة لزيارة قبر الرسول وينتصب وسط المدينة المسجد الكبير بمآذنه الخمس وأبوابه الخمسة كذلك.

ويدخل الحجاج ـ كما في الحرم المكي ـ من باب السلام. ولساحة المسجد شكل شبه منحرف تحيط بها أدرقة مغطاة يصل طولها إلى ثمانين متراً وعرضها إلى ثمانية أمتار. أما عدد السواري فيبلغ مائتين وستاً وتسعين، تختلف كل واحدة عن الأخرى. أما الجدران فمليئة بالكتابات.

وبوسط الفناء الكبير هناك مبنى مربع طول ضلعه عشرة أمتار يشير ـ حسب العادة ـ إلى قبر فاطمة ابنة الرسول.

وبالقرب منها يوجد قبرا أبي بكر وعمر اللذين يقول البيت عنهما إنهما "كانا صاحبيه في الحياة كما في الممات".

ودفن أبو بكر خلف الرسول، بينما دفن عمر جهة رجليه (صلى الله عليه وسلم).

ويوجد داخل بناية صغيرة مبنية بحجارة سود ترتكز على ساريتين فقط، يغطيها قماش أخضر من الحرير. وتمكن الفتحات التي في الجدران من رؤية القبور الثلاثة. وعلى بعد متر ونصف يوجد شباك جميل جداً طوله خمسة عشر متراً يحيط بالبناية كلها، وهذا يعطي نموذجاً جميلاً عن الصياغة التخريمية، وتزينها كتابات من النحاس المذهب.

وعلى رأس قبر النبي صلى الله عليه وسلم علق مصباح من ذهب وضعت فيه أحجار كريمة من كل شكل، بعضها لا يقدر بثمن.

وعند نهاية القبر يوجد قبر فاطمة ابنة النبي، وزوجة علي رابع الخلفاء الراشدين، كما سبقت الإشارة[1].

وتتوج هذه القبور، بل المسجد كله قبة كبيرة تتجلى من مسافة بعيدة تنتهي بكرة من نحاس عليها هلال جميل.

ويشير النشيد الثاني والسبعون إلى إبراهيم ولد الرسول. ولا ندري هل يوجد قبره داخل المسجد - كما يفهم من النشيد - أم أنه في مقبرة البقيع أم في المقبرة الموجودة في الجهة الشرقية، حيث تتم زيارة قبور أهل النبي الشريف وأصحابه. إن تاريخ حياة إبراهيم الذي يقول عنه الموريسكي "مع أنه مات طفلاً صغيراً فإنه كان من الأخيار". تعطينا فكرة عن الخصال التي كان يتحلى بها النبي الشهير.

وخارج الشباك يوجد كذلك قبر الإمام أبي عبد الله مالك، وهو الذي أسس المذهب المالكي، وكان لمذهبه أتباع في إسبانيا والمغرب.

يقول بوي مونثون (هنا) مشيراً بذلك إلى إسبانيا وبلدان الغرب الإسلامي. وكما سبق ذكره فإن مالكاً من أهل المدينة.

النشيد الثالث والسبعون:

أقول لكم إني رأيت أيضاً
شيئاً يدخل البهجة
رأيت نور النبي
يصعد في السماء
والكل دون استثناء

(١) هذا خطأ تاريخي سبق بيانه ص ١٠٩.

كانوا يهتفون بالحمد والثناء

طالبين المغفرة

يوم الحشر العظيم.

النشيد الرابع والسبعون:

زرنا كثيراً من الأماكن

المقدسة المباركة

في مكة والمدينة

في الجبال والربى

حيث ظهرت معجزات

في الأزمنة الماضية

مما يطمئننا

هذا ما وجدنا.

النشيد الخامس والسبعون:

يعلم الله

حقيقة عمق حزني

عندما غادرت

تلك الأرض المباركة

وأنا أودع قبر الرسول

ازداد شعوري

بأن الحياة والموت سواء

بعد هذا الأسف العميق.

النشيد السادس والسبعون:

كما أسفت لعدم زيارة القدس

أقول بيت المقدس

البيت الذي كله نور

وبركة وفضل كبير

والذي يصبو إليه كل العالم

فقد بلغ من الكمال

أن المسلمين والمسيحيين

يتوجهون إليه طلباً للمغفرة.

لقد أخذت القافلة عند العودة باتجاه القاهرة عبر الحجر، فتبوك ثم العقبة، وهو الطريق المعهود الذي كانت تسلكه قوافل الحجاج المصرية.

والعقبة هي بلدة توجد في أقصى الخليج الذي عبره أسطول سليمان بحثاً عن الذهب. ويعتقد أنها بنيت على أنقاض إيلات التي أعطت الاسم لتلك الذراع الشاسعة من البحر الأحمر. بعض الأكواخ الفقيرة التي يسكن فيها حوالي أربعمائة ساكن من فلاحين وصيادين يشكلون مجموع بلدة العقبة. وموقعها حقاً جميل، فالخليج محاط بالجبال التي تشكل إطاراً لتلك اللوحة الشاسعة.

وفي العقبة تتجمع قوافل الحج المصرية والسورية ومن الجزيرة العربية. وهنا يتزودون بالماء، لأن هناك ينابيع جيدة وكثيرة في هذه الواحة الجميلة. وعلى العكس فإن الأرض الوعرة والصخور التي تكون ضفة الخليج تشكل حاجزاً طبيعياً ضد البدو الذين لا يترددون في مهاجمة القوافل عندما يحسون أنهم أكثر

قوة. ولهذا نذكر كيف أن ملك مصر قد تنبه للأمر، فأمر بأن ترافق الحجاج كتيبة من الجيش والمدافع.

وتوجد العقبة على بعد مسيرة عدة أيام من القدس. ومن هنا حزن بوي مونثون لكونه لم يستطع زيارة بيت المقدس التي يقدسها المسيحيون والمسلمون. ويسمي المسلمون أيضاً مسجد عمر الذي يوجد بالقدس بالحرم الشريف. إذ إنه في سنة ٦٣٧م، وبعد أربعة أشهر من الحصار أحكم عمر سيطرته على القدس التي كان يسكنها ما يقارب خمسين ألف نسمة.

وأراد الخليفة أن يرافقوه على التو إلى ساحة الحرم ليرى الصخرة التي وضع يعقوب عليها رأسه أثناء نومه الإعجازي، تلك الصخرة التي شكلت في وقت ما قمة جبل موريا، والتي لم يفلها الحديد، كما يقول آخرون إنها كانت لمحراب المحرقات وآخرون إنها كانت لسانتا سانكتورم (Santa Sanctorum). وكانت هذه الصخرة تعد مركز العالم، كما كان يعتقد أنها تخفي عمقاً لا نهاية له بحيث يسمع عبره هدير المياه العاتية.

ويعتقد العرب أن صخرة Moria معلقة في الهواء لتكون معجزة دائمة، وأن اسماً من أسماء الله مكتوب عليها، وأنها صخرة من الجنة وجدت في الأرض، بحيث إذا صلى المسلم أمامها فإنه يطهر من الذنوب، ويعود كما ولدته أمه، وأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) أسري به من تلك الصخرة إلى السماوات السبع.

كما توجد تفاصيل أخرى: فقد بقيت عمامة النبي مطبوعة على الصخرة عندما سجد للصلاة، وثمة فتحة أحدثها جسم النبي عندما أسري به مخترقاً إياها، وقد أرادت أن تلحق به عبر الأجواء لولا أن جبريل أمسك بها. وقد ظلت يد جبريل منقوشة عليها وكذلك رجل النبي، كما يوجد أيضاً سرجان

من سروج البراق[1].

وقد توقف عمر أمام تلك الصـخرة، فمسحها بعباءته وأمر ببناء مسجد لم يشيد حتى سنة ٧٢ هجرية، حينما أصبح عبد الملك بن مروان خليفة للمسلمين. وخلال أربع سنوات كانت كل عائدات مصر تصرف على هذا المبنى، فقد كان عبد الملك بن مروان، حسب رواية العديد من المؤرخين العرب يريد أن يؤسس في القدس مسجداً على شاكلة الكعبة لكي ينافس عبد الله بن الزبير الذي أصبح خليفة على مكة والمدينة.

تلك هي قصة مسجد عمر الشهير المسمى أيضاً بمسجد الصخرة. وتوجد بداخله بقايا تبرز من بينها قبة الصخرة التي يحتفظ بها بعناية مثل ما يحتفظ بالحجر الأسود بمكة.

كما أن بئر الأرواح هنا تنافس بئر زمزم حيث يسمع هدير الماء الذي تحدثنا عنه. وتغطيه لوحة من المرمر، ويعتقد المسلمون أن الأنهار الكبيرة الثلاثة تنبع من هناك: دجلة والفرات والنيل[2]. وتوجد البئر في سرداب المبنى. والطابق العلوي يحتفظ في وسطه بقبة جميلة تعطي الاسم لهذا الأثر، وهي الصخرة الشهيرة التي ترتفع حوالي متر واحد، وتتسع إلى ١٨×١٤م. وهناك صيوان من الحرير الأحمر والأخضر ـ الذي هو هبة من الله إلى أمنا حواء ـ يلف كمظلة للصخرة.

كما تحتفظ قبة الصخرة براية النبي وراية عمر، ونسخة من القرآن التي كان يقرأ فيها هذا الخليفة، إلى جانب ترس حمزة وسيف علي.

وداخل الحرم يوجد المسجد الأقصى حيث توجد صخرة أخرى يقول المسلمون إن بها أثراً لرجل سيدنا عيسى، وليست هذه المباني التي وصفناها

(١، ٢) انظر الجزء الأول من الأرض المقدسة، لفيكتور جباردت Victor Gebbardt: La tierra Santa

الوحيدة بداخل الحـرم. فهناك أيضاً قبة السلسلة، التي تصل السمـاء منذ عهد سليمـان بسلسلة خفـية، ومحـكمة داوود حيث أقـام العدل هذا الملك، وقـبة المعراج وقبة السلوى، وقـبة جبريل وقبة الخضر ومبـانٍ أخرى. هذا فضلاً عن المنبر الذي يستخدم لخطبة صلاة الجمعة والنافورة الجميلة التي بناها سنة ١٤٤٥م السلطان الملك الأشـرف، كل ذلك يجـعل من الحرم القـدسي مدينة بإدارتهـا الخاصة وشيوخها وشرفائها الذين عادة ما يكونون شخصيات مهمة.

النشيد السابع والسبعون:

خاصة أن هناك يوجد وادي اليصابات
الذي حسبما جاءنا
سيكون محشرنا
حيث نبكي كلنا
وبكل أسى وحسرة
أخطاءنا وذنوبنا
ومن لم يعبد الله
ما عسى المذنب أن يفعل؟

النشيد الثامن والسبعون:

وهناك يجتمع
الرجال والنساء
ونحاسب على كل أعمالنا
ولن يظلم أحد
إذ سننال

الحساب العادل

وحسب أعمالنا

فإننا سننال جزاءنا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

هذه الآيات تبرز أن الحشر والبعث ـ كما عند المسيحيين ـ سيكون أيضاً بالجسد، وأن الحساب سيكون بوادي اليصابات.

ويجري الوادي المسمى خدرون، باتجاه مدينة القدس، وهو فرع من وادي الملك، حيث تمت المقابلة بين الملكي صادق وإبراهيم، والذي سمي فيما بعد بوادي اليصابات، لأنه قد دفن به الملك الذي يحمل هذا الاسم. إن مقبرة القدس كانت تسمى دائماً بالوادي. وبها توجد مآثر من كل العصور. وأينما اتجهت فإنك تجد الأرض مغطاة بلوحات المقابر قديمها وحديثها لأولئك اليهود الذين أتوا إلى القدس من آسيا وأوربا وأفريقيا ليناموا النومة الأبدية، فاختلط رفاتهم برفات أجدادهم. وبوزن الذهب يحصلون على حفر من الأرض ليدفنوا إلى جانب أجدادهم.

كما اختار المسلمون أيضاً هذا الوادي مقبرةً، وتقع في الجهة المعاكسة لليهود مقيمين مقبرتهم في الجهة اليمنى ليكونوا آمنين يوم الحساب.

ووادي اليصابات له مظهر موحش بحيث لا يوجد مكان في العالم يوحي بأفكار جليلة، ولا يوجد شيء حي يمكنه أن يبعد انتباه الزائر الذي يأتي هناك إلى هذه الوحدة الحزينة عن التأمل. مدينة مكفنة في أحزانها ومجرى ماء دون

ماء، وفي كل جهة توجد مآثر محزنة، وصخور عارية، وأشجار دون أوراق، وجبال قاحلة، ومقابر مهشمة ومفتوحة، ذكرى الشهداء والأنبياء، ونزول عيسى في آخر الزمن ليحكم بين الناس، هذا هو المشهد، وهذه هي الأفكار التي تملأ النفس تأثراً وذعراً عند زيارة هذا المكان.

وتشكل الربوة الجبلية الرمادية الواجهة الغربية التي تعتمد عليها الأسوار القوطية التي تطل المدينة من أعلاها.

ومن الجهة الشرقية يوجد جبل الزيتون، وجبلان آخران قاحلان لهما لون أحمر وغامق يتحاذيان. وإذا وجد نبات ما فيتشكل من شجيرات أثنان داؤود، والكرم الأسود المحروق بالشمس، كما تنتشر هنا وهناك مجموعات من الزيتون البري التي تظلل قليلاً تلك المصليات والمعابد والمساجد المتهدمة.

وأخيراً ففي نهاية الوادي يوجد القوس الوحيد للجسر الذي يعبر نهر خدرون وأحجار مقبرة قديمة، وأخيراً القرية العربية سلوان.

هذا هو المنظر الذي يقدمه الوادي والذي "سنبكي فيه على أخطائنا وذنوبنا" والذي "سيجتمع فيه الرجال والنساء" كما يقول بوي منثون، وهو ما يتوافق فيه المسلمون والمسيحيون، لكن فيما يخص كيفية ذلك، فإنه يوجد اختلاف بين الديانتين.

تقول الرواية العربية بأنه في اليوم التاسع ستنقل الكعبة - عبر الفضاء - إلى مسجد القدس، وهنا سينفخ في الصور.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤].

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

يقول محمد بن بير علي البرقوي[١]: يجب على كل مسلم أن يؤمن بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم عن علامات الساعة، وأنها حق وواجبة الحدوث؛ ومنها: ظهور الدجال، ونزول عيسى (عليه السلام) الذي سيقضي عليه، وظهور المهدي من أهل الرسول، وظهور يأجوج ومأجوج، ودابة الأرض، وشروق الشمس من مغربها".

إن كل مسلم يجب أن يؤمن بأن كل الأحياء سيموتون، وأن الجبال ستطير في الهواء كالطيور، وأن السماوات ستسقط، وبعد مرور بعض الوقت سيكون تنظيم جديد للكون ويبعث الله الموتى، فيقوم الناس إذ ذاك عراة. أما الأنبياء والصالحون والعلماء، فسيكون لهم لباس ويركبون خيول الجنة، ويستظلون بالعرش. وأما الباقون فيمشون على الأقدام عراة جائعين، وعطشى يزدحمون مع بعضهم البعض. وستكون الشمس على بعد ميل من رؤوسهم وإذن سيكون ثمة عرق عظيم بحسب ذنوب كل واحد من القوم. إذ يصل عند البعض إلى الكعب، وعند الآخرين إلى الركبة، وعند البعض إلى الرقبة، وعند الآخرين إلى فوق رؤوسهم. وسيظلون على هذه الحال لمدة خمسين ألف سنة.

(١) انظر: الإسلام Gracin de Tassy : L Islamisme

وبعد مرور هذه السنين سيأخذ كل واحد كتابه الذي كتبت فيه الملائكة أعماله. عند ذلك سيسأل الله الخلق وينتقم للمظلومين، فيأخذ من حسنات الظالم ليضيفها إلى حسنات المظلوم، وإن كانت ليست له حسنات فإنه يأخذ من سيئات المظلوم ليزيدها للظالم.

ويضيف: كل مسلم يجب أن يؤمن بأنه ستكون هناك موازين يوم القيامة لأعمال البشر، فمن ثقلت موازين حسناته فإنه يؤخذ إلى الجنة. أما الآخرون فيذهبون إلى النار، إلا إذا غفر لهم الله أو شفع لهم الأنبياء والصالحون والأتقياء، وهذه الشفاعة لا تكون إلا لمن مات على ملة الإسلام، وكل من مات وعنده حبة من إيمان فإنه سيدخل الجنة، ويخرج من النار.

وكل مسلم يجب أن يؤمن بأن فوق النار صراطاً أحدَّ من السيف، وفوقه سيمر كل البشر. فبعضهم سيمرون عليه بسرعة البرق، وآخرون بسرعة فرس طليق، وآخرون بالخطى، وآخرون سيجُرُّون أرجلهم مثقلين بذنوبهم، ويسقط آخرون في النار عندما يمرون فوقه.

كذلك على كل مسلم أن يؤمن أن الجنة والنار حق. وأن الأخيار سيدخلون الجنة خالدين فيها أبداً، وأنهم لن يموتوا هناك ولا يشيخوا ولا يصيبهم أي مرض، ولن يكونوا بحاجة إلى مستلزمات الحياة، وأن لباسهم سيكون دائماً في أحسن حال. وأن النساء والحوريات لن يكن مصابات بأي مرض جنسي، وأنهن لا ينجبن أولاداً. وأن أهل الجنة سيكون لهم ما يشاؤون من طعام وشراب، وما عليهم إلا أن يمدوا أيديهم، كما أن أرض الجنة ستكون من المسك، وأن البيوت ستكون مبنية لبنة من الفضة وأخرى من الذهب.

أما الكفار والشياطين، فلن يخرجوا من النار بعد دخولها، وسيكون عذابهم بأفاعٍ كبيرة وغليظة كأعناق الجمال وعقارب من حجم البغال، وبالنار والماء

الساخن. وهكذا فإن الأجسام ستحترق، وسيبعث الله فيها الحياة، وتبدل الجلود ليذوقوا العذاب. ولن ينتهي عذابهم أبداً؛ إذ إنهم لن يموتوا أبداً ".

ونظراً لتأثير الجو المسيحي الذي عاش فيه، فإننا نجد في نشيد بوي مونثون بعض هذا التأثير. وهذه نتيجة طبيعية نظراً لسيطرة المسيحيين في إسبانيا. وهكذا فإن بوي مونثون يقول في نشيده: "إننا سنجازى حسب أعمالنا". وهذا ما يظهر أن الموريسكيين بدؤوا يذوبون في الحضارة الإسبانية. يقول: "ماذا سيفعل أولئك الذين لم يعبدوا الله. إننا سنجازى حسب أعمالنا" إن شاعراً مسيحياً لن يستطيع أن يقول أحسن من هذا.

النشيد التاسع والسبعون:

لقد تألمت من الأعماق

لكوني لم أصعد

إلى سفح الجبل

المسمى بطور سينين

حين كلم سيدنا

موسى ربه

فإن كنت أذنبت في هذا

فإني أطلب من الله المغفرة.

نترك حاجنا في بلدة العقبة، وهو يتحسر على عدم زيارة القدس التي كان قريباً منها.

وليس الإحساس الذي يعبر عنه في النشيد التاسع والسبعين ـ والذي هو آخر نشيد ـ أقل من الإحساس بالألم الذي عبر عنه من قبل، لأنه لم يستطع أن يصعد إلى جبل سيناء بحيث كان يجب عليه أن يعبر الجزيرة (التي تحمل الاسم

نفسه) كلهـا في رحلته من العقبة إلى القـاهرة، أو الإسكندرية، حيث ركب ـ دون شك ـ سفينة قادمة إلى إسبانيا.

وفي شمال البحر الأحمر وبين خليجين ضيقين، ولكنهما طويلان، تمتد شبه جزيـرة مثلثـة الشكل حيث تتطابـق مع خط الطول ثلاثين، وتبدأ من العـقبـة لتنتهي في السويس بعد مسافـة تصل إلى ستين ميلاً. وتراوح الأجزاء الأخرى من الأرض الشاسعـة بين خمسين وخمسـة وستين ميلاً، وتسـمى بجبل سيناء الشهير، والتي هي مهد التشريعات كلها في العالم أجمع.

إن الصحراء بكل مخاوفهـا تمتد عبر تلك الأراضي المسكونة حالياً من طرف البدو الرحل في تلك الأرض المهجورة، والذين يتنقلون بخيامهم من مكان إلى آخر حسب الفصول.

وباستثناء هؤلاء السكان الرحل، فليس هناك سوى العقارب والحيات السامة التي تشكل خطراً حقيقياً على المسافر. وعلى كل حال فإنه يجب الاحتياط هنا من الإنسان أكثر من الزواحف، لأن البدو يعيشون فقط على السرقة والنهب.

تبعد العقبـة عن سيناء مسافة خمسين ميـلاً. وعندما قطعناها وجدنا أماكن يزورها الحجاج المسلمون، مع أنهم يعبرون بلداناً يهودية ومسيحية.

وفي إحدى الثـورات التي قامت بوادي سعـال عثر على مـصلى يقول أهل البلد: إنه للنبي صالح، الذي عاش قبل مـجيء الإسلام بعدة قرون، حيث إنه عاش خلال حكم شنددا سابع أحفاد نوح وملك قوم ثمود.

ويعـود أصل ثمـود إلى نوح، عن طريق أحـد أحفـاده الذي حكم البـلاد الواقعة بين سوريا والحجاز حتى شواطئ بحر الهند [1].

وقد كان صالح دون شك "أحد الأنبياء المشـعين نوراً"، كما قال بوي مونثون

(١) انظر: المسعودي: مروج الذهب، الجزء الثالث، ص٨٥.

في نشيده التاسع والثلاثين، حيث يحكي عن رحلته من القاهرة إلى مكة.

ويحكي المسعودي قصة غريبة عن هذا النبي. "لقد بعثه الله ليدعو أهل ثمود إلى الحق، ولكن هؤلاء لم يريدوا أن يسمعوه، وقد ضاعف مجهوده متوعداً إياهم بكل أنواع العقاب، فطلبوا منه أدلة عن حقيقة دعوته وصدقها: " إن كنت صادقاً يا صالح فيما تقول وأنك رسول الله، فأخرج لنا من هذه الصخرة ناقة سوداء حبلى من عشرة أشهر، ويجب أن يكون لونها أسود مائلاً إلى الحمرة، ولديها غرة على جبينها، وبها وبر طويل".

وقد دعا النبي ربه طالباً منه العون، فأخذت الصخرة ترتعش وهي تتململ في اللحظة نفسها، وبعد ذلك سُمع أنين وصراخ ألم. فتفتحت الصخرة بعد أن عانت آلاماً كبيرة ـ حسب الرواية ـ كما لو كانت امرأة في حالة وضع، فظهرت ناقة تتبعها ابنتها الصغيرة، وأخذا يأكلان العشب بهدوء أمام ذهول الحاضرين.

ومن نافلة القول إن أهل ثمود آمنوا ومعهم ملكهم شندا بن عمرو.

أما الناقة فقد كان حليبها يتدفق بغزارة يكفي كل القبيلة، وفي المقابل لم يكن هناك ما يكفي من الكلأ والماء لإطعامها.

وصادف أن كان بين قوم ثمود امرأتان جميلتان جداً تسميان (عنيزة) و(صدوف)، وقد أسكرتا صديقيهما وأمرتاهما بقتل الناقة، كي لا يجدا أنفسهما دون ماء، لأن الناقة كانت تشربه كله. وبالفعل فقد قتلا الناقة وابنتها بمساعدة بعض أفراد القبيلة.

وأقبل النبي صالح في اللحظة التي كانوا يوزعون فيها اللحم. فسخروا منه وقالوا له: "متى موعد العقاب الذي هددتنا به يا صالح" فقال: إن هذا اليوم هو الإثنين، وفي يوم الخميس ستصير وجوهكم صفراء، وفي اليوم التالي ستصير حمراء، أما يوم السبت، فستكون سوداء. وسترون في أول أيام

الأسبوع كيف يأتي العقاب.

وقد ولَّد هذا الوعيد أثراً سيئاً لديهم، فأجمعوا على قتل النبي صالح. وكادوا يفعلوا ليلاً، لولا أن حجراً غليظاً حال دون ذلك.

وبدأت وجوه القوم في اليوم التالي تصفر إلى درجة أنهم كانوا يظهرون وكأنهم مصابون باليرقان، وبدأت هياكل أجسامهم تتغير. ولم يكن أحد يشك في أن العقاب حالٌّ بهم، وكانت وجوههم يوم الجمعة تبدو وكأنها من جمر، أما يوم السبت فأصبحت وكأنها من فحم، وماتوا جميعاً يوم الأحد بسبب عمى قلوبهم الكافرة.

هذه هي قصة النبي صالح الذي تركنا ضريحه خلفنا من أجل زيارة جبل سيناء حتى لا نضطر إلى طلب المغفرة لإهمالنا زيارة هذا المكان كما فعل بوي مونثون.

قصتان اثنتان هما المهمتان في جبل سيناء، وهما جبل موسى (٢٢٥٠ متراً) فوق مستوى البحر حيث يوجد دير القديسة كاترين الذي أسسه الإمبراطور قسطنطين، و (رأس صفصافة) الذي يصل ارتفاعه إلى ٢٨١٤ متراً، وتتفق كل الأخبار على أنه في جبل موسى كلم الله النبي موسى.

ونقل هنا ما كتبه (Victor Gebhardt) في كتابه الأخير عن جبل سيناء:

"عند الخروج من دير القديسة كاترين يبدأ الصعود، وعلى بعد خمس وعشرين دقيقة نحو الجنوب الغربي توجد في عمق مغارة عين من الماء الصافي البارد تسمى هذه "عين موسى". هذا الجزء الأول من الطريق وإن كان وعراً، فإن صعوده ممكن ركوباً على الخيل التي تقطع حوالي ساعة من الدير، لكن ينبغي فيما بعد أن نتابع السير مشياً على الأقدام، متخطين العديد من الحواجز التي تتزايد، ويبدو أن الطريق معد بالمعاول، أو تكون الأحجار الموضوعة بعضها فوق بعض، مما يجعل الصعود صعباً بحيث يجب أن نتعاون بالأيدي.

إن المسافر الذي يتوقف ليرى ما يحيط به، يجد نفسه نقطةً معلقة في الفضاء، وفوق رأسه سماء دون سحاب تشع نوراً، وتحته هوة مروعة وإلى جانبه صخور حزينة دون أي نبات، إذ لا ينبت أي شيء.

وبعد هذه الرحلة المتعبة بقليل يشير الدليل إلى معبد مخصص للسيدة مريم، التي تقول الأخبار: إن العائلة المقدسة توقفت هناك عندما كانت في طريقها إلى مصر، لكن لا يبدو واقعياً أن تكون قد وصلت إلى تلك النقطة المستحيل الوصول إليها، مبتعدة عن الطريق السوي.

ويلاحظ في الصخرة شق يقال: إنه أثر جمل محمد صلى الله عليه وسلم، حيث يذكر المسلمون بأنه زار الجبل وقد ترك فيه أثر مروره.

ويلتوي الطريق نحو الغرب، وبعد المرور بقوسين معقودين نصل إلى عين يظللها شجر سرو ضخم قديم، وكأنه يستدعي الإنسان إلى فترة راحة. وإذا ما تابعنا الصعود فإننا نجد معبداً مخصصاً لإلياس، وإلى جانبه المغارة التي لجأ إليها إلياس هرباً من غضب جزابيل، كما يوجد هناك سهل يزينه العشب يدعو إلى الراحة، خاصة أن بئر إلياس يوجد بها الماء الصافي والكافي.

ومن معبد إلياس إلى القمة توجد مسيرة خمس وثلاثين دقيقة عبر طريق أكثر وعورة. وحيث يكون التسلق صعباً خاصة في النقط، فقد عملوا في الصخور درجاً لذلك. إن شدة البرد وقوة الريح تزيد، إذ في الجهة المعرضة للريح الباردة لا يختفي الثلج أبداً. أخيراً بتعب ومثابرة نصل إلى قمة جبل موسى على ارتفاع سبعمائة متر من دير القديسة كاتالينا، وألفين ومائتي متر من مستوى البحر.

إن المشهد الذي يظهر من هناك ليس له نظير ربما في العالم كله. إنه الأكثر جلالاً، وهو في عزلة موحشة بين صخور من الغرانيت تنتهي بقمم وعرة ذات

شقوق غير متناسقة ترتفع من كل جانب في اتساع كبير حول المسافر دون أن تكون هناك غابة صغيرة أو حقل أو مزرعة، أو مجرى جدول يمكنها أن تخفف من رهبة المنظر.

يقول السيد (Leon Laborde): "تصوروا أن بحراً شاسعاً يرفع أمواجه بفعل العاصفة إلى السماء فاتحاً بينها هوة سحيقة، ثم ثبت البحر على ذلك الحال العنيف وتحجر في كتل من البازلت والغرانيت والحجر السماقي. إن ذلك سيكوّن لدينا فكرة عن المنظر الذي نكتشفة في كل جلاله عندما نصل إلى قمة جبل سيناء". تمر الرياح بزفيرها بين الصخور المتشابكة بأصوات مخيفة، ولا ينبت شيء هناك، ولا ييبس ليدل بهذا على توالي الفصول، وكأن الزمن قد توقف، وأن الماضي فرض نفسه على الحاضر بقوة حدث مقدس لا يمكن مسه.

وفي قمة السهل الذي يراوح طوله بين خمسة وعشرين وثلاثين متراً، بنت أيدٍ محسنة معبداً يصعد إليه من حين لآخر رهبان سيناء، لإقامة شعائرهم الدينية. وإلى جانبه يوجد مسجد في حالة خراب، وغير بعيد عنه يشير الدليل إلى مغارة قليلة العمق حيث اختبأ فيها موسى عندما تجلى ربه.

أما القمة الثانية في جبل موسى فيفصلها عن الأخيرة فضاء من ثلاثة كيلو مترات ونصف نحو الشمال الشرقي وتسمى رأس صفصافة. وعلى ارتفاع ستمائة متر على الأقل تطل عمودياً على كل سهل رحاب، ونظراً لرحابته فقد خيم فيه اليهود عندما وصلوا إلى سيناء. ومن كل مناطق وادي زقلب تظهر بوضوح قمة صفصافة، وهكذا فإن كثيراً من الرحالة ومن بينهم Robinson و Palmer، يعتقدون أن الوحي الإلهي قد أنزل هنا.

والسائح الذي يريد أن يتذكر مجموعة العجائب التي كان جبل موسى شاهداً ومسرحاً لها منذ ثلاثة آلاف سنة، عليه أن يقرأ فصول سفر الخروج التي

تتصل بذلك.

مغادرين هذه القمة العظيمة بدأنا النزول الذي يعد أكثر صعوبة وخطورة من الصعود. عند صعودنا واجهتنا دون شك متاعب كثيرة، لكن الأرض التي كنا نطؤها كانت صلبة، كما أن البصر يمكن أن يستريح فيه بأمان، وباستخدام الأيدي والأرجل نمسك الصخرة بقوة، وبمجهود كبير استطعنا الصعود. أما في النزول ـ وعلى العكس من ذلك ـ فكنا نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام هوة مفتوحة تحت أرجلنا. كل درج حجري من ذلك السلم يبدو كأنه حافة لمهلكة مروعة، إن أي خطوة خاطئة أو أدنى انزلاق لانعدام شيءٍ نتوكأ عليه يمكن أن يهوي بنا من صخرة إلى أخرى.

إن استمرار الرحلة في شبه جزيرة سيناء أمر صعب دون أن نستحضر ما ذكر في الإنجيل. فقبل أن نصل إلى أنقاض بلدة فاران القديمة، وهي التي كانت بها الأسقفية في القرن الرابع، والواقعة وسط واحات كبيرة، والتي زارها حجاج كل البلدان في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر، نجد صخرة حوريب المشهورة بالعين التي فجرها موسى لكي يطفئ عطش اليهود.

وفي فادان تحارب اليهود مع العماليق وانتصروا عندما رفع موسى يده إلى السماء، وانهزموا عندما كان ينزل يده، لذلك عملوا على رفعها له إلى أن انتصروا وفتح باب سيناء لليهود.

أما وادي مكاتب والذي يصل طوله إلى عشرة كيلو مترات، والمشهور بنقوشه المنتشرة في كل مكان وفي كل الصخور، فيصل بعد ذلك إلى الصحراء التي تسمى سين (Sin) في الكتاب المقدس.

ولقد كانت الكتابات السينائية خلال وقت طويل تنسب إلى مرور الإسرائيليين، ولكن بعض الأبحاث التي قام بها السيد Palmer سنة ١٨٦٨م

بينت أنه لا يمكن أن يكون لهـا من العمـر أكثـر من القرون الأولى من ظـهور الكنسيـة، على عكس كتابات أخـرى في مغارة وسرابيط الخـادم، وهي أماكن قريبة من سيناء وقديمة جـداً بحيث إن في إحداها نحت اسم خوفو الملك الذي بنى الهرم الأكبر.

وفي صحراء (سيناء) تقوَّل بنو إسرائيل على موسى وهارون، وهم يتأسفون على ترك مصر وما فيها، وهناك أيضـاً غرق المخيم بأسراب كبيرة من الحجل، وفي اليوم التالي ظهر لأول مرة المنّ الذي أكل منه اليهود في رحلتهم الطويلة. وتوجد في تلك الأرض إليهم السفر حيث أقاموا، والتي يقول عنها الإنجيل إنه كان بها اثنتا عشرة عيناً وسبعون نخلة.

وإلى الشمـال الغربي، صـوب طريق العودة إلى مـصر توجـد عين أخرى تسمى عين الحبارى حـيث توقف أيضاً بنو إسرائيل. إنها مياه غـير عذبة، وقد اشتكى اليـهود إلى مـوسى قائلين: "مـاذا عسانا سنشـرب؟ فدعـا موسى ربه فأظهر له عصا ولما ألقاها في الماء صار عذباً".

سبعـون كيلو متراً هي المسافة المتبقية لموريسكينا حتى السـويس. ويعبر في جزء منها الصـحراء المسماة إطحـان في كتاب الأرقام، وسور بالعـبرية (شور) يعني السور. إنه مكان قاحل حيث لا تقع العين إلا على بعض النباتات الشوكية القليلة ذات الأوراق الرمادية التي لا لون لها، والتي تقضمها الجمال بنهَم.

وقبيل نصـف الطريق توجد (عين موسى) وهي واحة مظللة بالنـخيل، وقد أخذت اسمها من العيون التي ترويها، ومن الرواية التي تقول إن موسى توقف في المكان نفسه بعد أن قطع البحر الأحمر، حيث غنى بنو إسرائيل ذلك النشيد الذي تركه لنا كتاب سفر الخروج.

وتفصل ستة أمـيال فقط هذه النقطة عن مدينة السويس الشـهيرة، التي تعد

المدخل والمفتاح إلى قناة السويس الحديثة.

عند الوصول إلى الإسكندرية استطاع بوي مونثـون أن يتنفس الصعداء. لقد أنهى الجـزء المهم والخطيـر من حـجه، وهذا لا يعني أن عـبـور البـحر حـتى الشواطئ الإسبانية خالٍ من مشكلات جمة.

لقـد رأينا هول المتاعب التي تعـرض لهـا في بداية رحلته، ومنهـا يمكن أن نحكم على المتاعب الأخرى التي قد تواجهه في العودة.

لقد كـان لزاماً على المرء في ذلك العصـر أن يتحلى بالشجـاعة والحمـاسة الكبيرة لكي يغـامر في البحار والصحـاري، ويتحدى الأحوال الجوية القـاسية والمشكلات الأخرى، كالجـوع والتعب والأمراض والغرق ومصـارعة الوحوش والرجال. وكل ذلك من الممكن حدوثه، لذلك يجب أخذه في الحسبان.

لا نعرف شـخصية بوي مـونثون، ولكننا يمكن أن نجزم أنه كـان قوياً، وأن عزيمته صلبـة، وأن إيمانه لا حد له. ومن يدري لعل ما سببـته تلك الإجراءات الصارمة الصادرة سنة ١٥٩١م ضد الموريسكيـين ـ كما رأينا في الفصل الثاني ـ أذكت حماسة حاجنا الشهير ليقوم بمغامرته عبر البحار والصحاري.

وينتهي الجزء الأساس من وصفه بالنشـيد التاسع والسبعين، إلا أنه لم يترك القلم. إن المعلومات التي دونها خلال رحلته سمحت له بتقديم دراسة جغرافية كاملة عن تقسـيم المذاهب الأربعة في كل جهات العالم القـديم. وبوي مونثون لا يتوانى عن تقديم أية معلومة يمكن أن تصلح لشحذ الهمم التي كانت خامدة في ذلك الوقت لإخوانه في الإسلام.

إن للوصف الجغـرافي الذي يختم به مـوريسكينا الشهيـر كتابه هذا أهمـية كبيرة؛ فهو يذكر الدول التي كـانت تدين بالإسلام في بداية القرن السابع عشر بأسـمائهـا العربيـة، ولا شك أن دراسة هذه الدول ومـعرفـتهـا تهم المؤرخين

والجغرافيين على السواء.

وإدراكاً لما يمكن أن تقدمه دراسة هذا الجزء الأخير من "أناشيد بوي مونثون" لهذه العلوم، طلبنا من صديقنا الكبير دون بابلو خيل أن يمنحنا حق نشرها، ذلك أنه لا "النصوص الأعجمية" ولا مجلة (روكي شابيس) قدمت هذا العمل الممتاز للقارئ.

واستجاب لطلبنا بلباقته وكرمه المعهود، وهكذا فإن هذا العمل يرى النور لأول مرة في كتابنا هذا.

ومباشرة بعد النشيد التاسع والسبعين يستمر المخطوط بهذه الكلمات: هذا هو الترتيب الذي تتبعه المذاهب الأربعة في الصلاة بمكة.

فأول المذاهب مذهب الإمام الشافعي (رضي الله عنه) ومن أتباعه: الإسكندرية ونواحيها، والقاهرة، وأرض مصر، والصعيد والتي تشكل ثلاثة أشهر من المشي على النيل الفوقي، فأرض كنعان وحلب، والشام والقدس، ومكة وبغداد، وكثير من بلاد العجم (الفرس) والجراكسة، وكل أراضي أبينا آدم[1] (عليه السلام).

أما أتباع أبي حنيفة (رضي الله عنه)، فهي تركيا، وباقي بلاد الفرس، وإمبراطورية القسطنطينية، وبلاد رومانيا[2] وبلغاريا، وبلاد التتار، ومملكة خزران و(أندرينوبليس)، وكل أرض التتار وأرض ليدول، وكل أرض الملك لنك حتى بلاد المسلمين حيث تطلع الشمس.

أما أتباع الإمام مالك (رضي الله عنه)، فهي بلاد الملك (ابن دبيرة)[3] في

(١) هل هي الجزيرة العربية ؟

(٢) جزء من الإمبراطورية العثمانية، ويعتقد أن طراسيا، مايسلونيا وتيساليا.

(٣) هل هي البحرين ؟

ناحية مكة، ومملكة الملك (كينوا بني)[1].

ومملكة عكوم[2] الذين يوجدون في الجزء الغربي، وكل دول شمال أفريقية من الإسكندرية إلى أسفل وكلهم من العرب.

وأتباع ابن حنبل (رضي الله عنه) يوجدون في أرض العراق، واليمن والبجة[3]، وبلاد السند والهند والهند الوسطى، وبلاد (تايمور بيك)[4] وبلاد تومبوكتو والحبشة، ومملكة كلكوتا (أو كاليكوت)، وجزء كبير من الصحراء وبلدان السود من أين يأتي ذهب التبر ومن هؤلاء كثير ممن هم على مذهب الإمام مالك.

"هنا تنتهي أناشيد الحاج بوي مونثون"

والحمد لله رب العالمين[5].

إن شرح هذا الجزء من المخطوط يطرح مشكلات جمة، فمن جهة المعلومات الجغرافية لدى بوي مونثون لا يمكن أن نثق بها كثيراً، ومن جهة أخرى فإن نقل الأسماء التي أتى بها والتي قد يكون سمعها عن أحد يحتمل أن تكون غير صحيحة، ثم إن ناقلي المخطوط عدلوا النسخ المتتالية كما سبق ذكره، كل هذا يجعل دراسة هذا الجزء الأخير شاقة للغاية.

---

(١) هل هي القيروان في تونس أم مدينة بالسودان ؟

(٢) AXUM هي مدينة بالحبشة، ولكن يمكن أن تكون أيضاً بالصومال .

(٣) كان لشعب البجة علاقة مستديمة مع عرب اليمن بسبب معادن الذهب التي كانت بأرضهم (انظر المسعودي، مروج الذهب) الجزء الثالث ص: ٣٣.

(٤) (تيمور لنك) و (ظامرلان) غازي موغولي ينحدر من (جنكيز خان). عاش بين سنة ١٣٣٦ إلى ١٤٠٥.

(٥) وردت مكتوبة بالعربية في المخطوط الأصلي.

قليلاً ما درست في إسبانيا جغرافية العالم الإسلامي بصفة عامة، مع أن نصوصاً قيمة مثل ياقوت[١] والقزويني[٢] ووصف أفريقية وإسبانيا للإدريسي[٣]، والمكتبة الجغرافية المنشورة بواسطة Goeje وآخرين، توجد رهن إشارة الباحثين والعلماء. واعتماداً عليها يمكنهم أن يقوموا بدراسات قيمة.

وهذا هو السبب الرئيس الذي يجعل تأويلنا للنص الأعجمي لحاجنا صعباً للغاية. وبفضل الحماسة للدراسات العربية الذي أبداه دائماً أستاذ سرقسطة الفاضل الجليل (خوليان ريبيرا)[٤] الذي ظل رافد علمه مفتوحاً على الدوام لواضع هذا الكتاب، فله شكرنا الخالص وتقديرنا الكبير.

لقد كان الإسلام منتشراً في نهاية القرن السادس عشر في جزء كبير من العالم القديم. ثم انتشر فيما بعد في كل القارة نظراً لزحف القبائل التي تتبع النبي محمداً صلى الله عليه وسلم، إذ لم يجد هؤلاء حاجزاً إلا هزموه، ولا حدوداً إلا حطموها ومحوها. ولم يمر قرن على وفاة محمد صلى الله عليه وسلم حتى ارتفعت راية الإسلام مع عمر في سورية وفلسطين ومصر ومع عثمان في بلاد الفرس وجزء كبير من أفريقية، وبعد ذلك مع الأمويين في أفريقية وإسبانيا. وهكذا فإنه في أواسط القرن الثامن أصبح الحكم الإسلامي يمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي وصولاً في الشمال إلى جبال البرانس والقوقاز في الشمال إلى الصحراء وبحر الهند في الجنوب، وهكذا

(1) Jacuts, Geographisches Wortebuch Von Ferdinand Wustentels.

(٢) زكريا بن محمد بن محمود القزويني.

(٣) النص العربي المنشور لأول مرة طبقاً لمخطوطي باريس وأكسفورد مع ترجمة وتعليق ومعجم لدوزي Dozy و Goeje.

(٤) مستعرب إسباني شهير.

فقد فتح في ثمانين عاماً ما لم تستطع روما أن تحققه في ثمانية قرون.

إن دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وسمرقند والقسطنطينية كانت على التوالي مراكز حضارية تشع الأعمال العظيمة لذلك الشعب الذي لو لم يكن في دستوره بذرة الاختلاف وعدم التنظيم لكان قد حول العالم كله إلى لعبة في يديه وأحال أبناء آدم إلى أتباع.

وخلال القرن السادس عشر بدأ انحطاط العالم الإسلامي، كانوا لا يزالون يقدمون سلاطين عظماء مثل سليمان الذي أوصل الإمبراطورية العثمانية إلى أوجها فاتحاً هنغاريا ومهدداً فيينا وحاكماً جزءاً من روسيا. وهكذا فإن نهاية القرن المذكور كانت الشريعة الإسلامية يعمل بها، كما سبق القول، في منطقة شاسعة من العالم القديم.

لقد كان لمذهب الشافعي أتباع في مصر وجزء من الجزيرة العربية الجنوبية وبلاد الفرس وسوريا وفلسطين.

مصر

يحكي مؤرخو مصر التي يسمى جزؤها الأعلى بالصعيد أشياء غريبة. فالمسعودي ينسب الجملة التالية إلى عالم يقول فيها: "إن مصر جوهرة بيضاء خلال ثلاثة أشهر، وهي مسك أسود خلال الثلاثة الأخرى، وزمردة في الربع الآخر من السنة، وذهب خالص في الأشهر المتبقية". فهي جوهرة بيضاء عندما يرتفع ماء النيل وتبدو الأرض شاسعة وكأنها مرآة. وعندما يعود النيل إلى مجراه ويتراجع فإنه يترك ترسبات سوداء في الأرض تجعلها مهيأة لاستقبال الزرع، باعثاً رائحة كالمسك. وبعد ثلاثة أشهر تزهو الأراضي بخضرة الزمردة الخاصة التي تغطي الفدادين، وبعد ذلك في شهر أبريل ومايو ويونيو يصفر الزرع فتأخذ مصر شكل الذهب الخالص وقيمته.

لا يمكننا أن نقف عند الجزئيات الغريبة[1] التي تركها المؤرخون العرب عن مصر، ولا أن نقدم هنا تفاصيل كل بلد أو ما فكروا فيه أو حلم أولئك الذين حكمونا يوماً ما.

سوريا

يروي المسعودي أن عمر بن الخطاب كتب إلى أحد علماء عصره يقول: "نحن عرب، وقد منّ الله علينا بفتح العالم. ولهذا فإنني أريد أن تخبرني عن أهم بلدان العالم وعن طقوسها ومواقعها وعن التأثير الذي تحدثه الأرض والجو في ساكنيها".

وإليكم جواب العالم عن سوريا البلد الذي كان يتبع مذهب الشافعي: "في سوريا ينبعث من الأرض بخار كثير، فيتراكم مكوناً سحباً تعطي أمطاراً غزيرة. فالطقس يضعف الجسم ويقلق العقل، ولكنه في المقابل يعطي للسحنة صفاءً في الخطوط خاصة في منطقة حمص، حيث يمتاز السكان بجمال أشكالهم. إن سوريا بلد خصب وجميل مسقي بوفرة، وبه غطاء نباتي، كما تشقّه الأنهار والسيول،

(١) يروي المسعودي عن مصر هذه الرواية: لقد علم أحمد بن طولون أنه يوجد بصعيد مصر رجل مسن يبلغ مائة وثلاثين سنة من العمر، له من التجربة والحكمة الشيء الكثير. فأمر بالإتيان به إلى قصره فأكرمه ما وسعه ذلك. وكان أحمد يقضي معه الأيام والليالي منبهراً بإجاباته ومستمعاً إلى ذكرياته ورواياته. وكان يقول عن إسبانيا: إنه في الأزمان الغابرة كانت شواطئها وسواحل إفريقية قريبة جداً من بعضهما، حتى إن جسراً من حجر وآخر يربط بينهما. وكانت القوافل تمر عليها لتنتقل من بلد إلى آخر. وكان الجسر المقام على صخور صلبة يقسم البحر عدة أفرع. وكان طوله يصل إلى اثني عشر ميلاً، أما عرضه واتساعه فكانا أيضاً كبيرين. ومع مرور الزمن أخذ مستوى البحر الأبيض المتوسط في الارتفاع، فانغمس الجسر تحت الماء، لكن بقاياه تظهر أحياناً تحت الماء حيث يراها البحارة. ووجود ذلك الجسر لا يزال يتذكره الناس عموماً في فاس وفي كل المغرب (انظر المسعودي: مروج الذهب، الجزء الثاني، الفصل الواحد والثلاثون).

وأرضه خصبة زراعية. إنها أرض الأنبياء، حيث تتنصب القدس، المدينة المفضلة، والأرض التي عاش فيها أشرف الخلق والصالحون والنساك الأتقياء.

الحجاز

وعن الحجاز الجهة الغربية من الجزيرة العربية وعاصمتها مكة، يقول العالم الذي استشاره عمر بن الخطاب: "إن الحجاز حاجز شاسع بين سوريا واليمن وسواحل البحر. فالطقس هنا حار جداً، والليل جميل جداً. فالطقس ينحف الجسم ويعكر الدماغ، ويقوي القلب، ويحطم الأفكار السمحة ويهيئ للكراهية، ويحطم الرحمة وينمي الشجاعة، ويقتل أدنى إحساس بالتواضع. ولهذا فالسكان دهاة مع ميل إلى الشر.

وعندما تأتي نهاية العالم، فإن الحجاز سيشتهر بالأحداث الكبيرة التي سيكون مسرحاً لها.

مذهب أبي حنيفة

لقد دخل مذهب أبي حنيفة إلى أوروبا، وكانت تحت رايته ما تسمى اليوم تركيا الأوروبية وروسيا الجنوبية، كما أنه كان يتبع في آسيا الصغرى، في بلاد فارس كلها تقريباً، وفي القوقاز وتركستان، وفي بلاد التتار فكان بذلك الترك الأوربيون والآسيويون خاصة هم الذين كانوا يتبعون إمام بغداد الشهير.

الأتراك

يقول العلماء العرب: إن الأتراك ينحدرون من أمور بن سبيل بن يافث بن نوح. والجزء الأكبر ممن ينحدرون من أنو نزحوا نحو الشمال، وأسسوا كثيراً من الممالك كما استقروا في القوقاز وطرابزين وبلغاريا. وتوجه آخرون إلى الصين، كما سكن بعضهم المنخفضات ومن بينهم الأتراك، والغز، والتغزغز

هؤلاء الذين كانوا يقيمون بمدينة (كوشان) الواقعة بين خراسان والصين قد أصبحوا أقوياء من بين تلك الأجناس والقبائل. كما كان أقوياء الغز المنتشرون في بلاد فرغانا وأشاش التي ينحدر منها خاكان من الجنس الذي استطاع أن يجمع تحت حكمه كل الممالك التركية، ويمارس على كل ملوكها سيطرة كاملة[1].

بلاد الفرس

حسب رواية المسعودي، فإن العراق الفارسي يتميز بأرض صلبة ومتماسكة وهواء قوي وطقس متقلب جداً. ونتيجة لذلك فالسكان خشنون، لأن الطقس يقتل الخيال والغرائز النبيلة. وتتميز خراسان بطول قامة سكانها وبذهنهم المتأمل، أما فارس فتمتاز بخصوبة أرضها وبخل سكانها، فيما تمتاز خوزستان بميول أهلها الساقطة البهيمية.

القوقاز

وهي مشهورة أيضاً بانتمائها إلى مذهب الأحناف. وتضم أرضاً شاسعة بلغات مختلفة تحتوي على عدد كبير من الممالك والقبائل. وتفصل جبال القوقاز طرق ملتوية وأنهار عميقة، حيث توجد في مدخل أحدها مدينة باب الأبواب التي بناها خسرو أنوشروان. وهذا الملك هو الذي بنى أيضاً السور الشهير الذي كان يصل من جهة إلى البحر، ومن جهة أخرى كان يقطع الوديان والجبال وصولا إلى طباريسان وكان طوله يصل إلى أربعين فرسخاً، وكانت له أبواب من حديد تفصل بينها مسافة ثلاثة أميال، ومساكن تستخدم للتواصل والدفاع عن البلاد. وكانت تمثل جداراً لا يمكن تجاوزه من طرف القبائل المجاورة، ومن

(١) يقول الإدريسي إن (جالوت) العملاق الذي قتله داود كان من هذه القبائل وكان ينتمي إلى قبيلة زناتة، وإن سبب خروج هؤلاء من فلسطين هو موت (جالوت).

بينها القبائل التركية و (Aljazares)، و (Alanos) و (Serires) وآخرون.

يقول المسعودي: "لعبور جبال القوقاز الوعرة لابد من مسيرة شهرين على الأقل. ويعلم الله وحده كم عدد القبائل التي تسكنها. وينصب أحد الشعاب في بحر كاسبيو، ويصل الآخر إلى بحر مايوتيس والذي تصل إليه أيضاً قناة القسطنطينية. وعلى نفس البحر تقع مدينة طرابزين حيث تقام كل سنة أسواق مهمة يقصدها كثير من التجار من مسلمين، ورومين، وأرمينيين ومن بلدان أخرى، حيث يبرز الوافدون من كيكش في بلاد الشركس.

مذهب الإمام مالك

انتشر في القارة الأفريقية حيث استقر في بعض دول أفريقية الشرقية وفي دول المغرب العربي انطلاقاً من الإسكندرية إلى ما تحتها وكلهم من العرب.

البربر

تعد فلسطين البلاد الأصلية للبربر، وبما أنهم كانوا قبائل من الرحل، فقد اتجهوا بعد ذلك إلى المغرب، وهناك انتشروا في ربوعها. إن قبائل زناتة و (Maguillas) و (Darisas) أقاموا في الجهة الجبلية وكذا في (برقة). أما Hoveras فقد استولوا على بلاد (Yias) والمسماة أيضاً بطرابلس، وهي المدن الثلاث في المغرب، وانتشر البربر في شمال أفريقية وصولاً إلى ديار المغرب حيث تجد قبائلهم في هذه المنطقة بـ (abuca) التي تبعد عن القيروان ألفي ميل[1].

مذهب الإمام ابن حنبل

انتشر بالجزء الجنوبي من آسيا، مروراً بالبحر الأحمر ودخل الصومال والسودان ووسط أفريقية. وقد عمل على ذلك التواصل الذي لم ينقطع بين

(١) انظر الإدريسي: وصف أفريقيا وإسبانيا.

الصومال واليمن في العصور الوسطي.

وهكذا كان سكان العراق واليمن والهند والصومال والسودان حنابلة.

العراق

يقول الكتاب العرب: إن العراق كان منارة الشرق ومفتاحه، ومركز الأرض وقلبها، وإن سكانه كانوا يفضلون على سكان الأرض بقوة مزاجهم، فكانت مزاياهم مصدر كل خير. وكانوا يتمتعون بسماء صافية وهواء صحي ونقي، وأرض خصبة ومياه غزيرة، وكانوا يعيشون حياة مريحة وسهلة.

وكان سكان "مدينة السلام" ـ كما كان العرب يطلقون على بغداد ـ هم الذين لهم المركز الأعلى، وكانوا ـ كما سبق الذكر ـ شافعيين. ويروي مترجمو عمر أنه لما علم بتجمع الجيش الفارسي في (نهاوند) قرر أن يذهب إلى العراق. وبهذه المناسبة سأل كعب الأحبار عن هذه البلاد، فأجابه بهذه الكلمات: "يا أمير المؤمنين، لما خلق الله العالم اجتمعت الخلائق بعضها ببعض. فقال العقل: "أريد أن أذهب مع العراق" وقال العلم "سأتبعك" وقال الغنى "أريد أن أعيش في سوريا" وأضافت الخلافات: سأذهب معك" أما الصحة فقد ذهبت مع الرمل إلى الصحراء وتبعتها الصراحة".

اليمن

يسمى هكذا لأنه يوجد على يمين الكعبة. يروى أن له طقساً ضاراً بالصحة، ولكنه نافع للذكاء. ومع ذلك فإن الرطوبة التي تطغى عليه لا تناسب الأفكار العالية، وعلى العكس فإن السكان يتميزون بشرف جنسهم ونقائه.

وكانت وديان اليمن خصبة والسماء متقلبة وسكانه لا يتميزون بالثبات والمواظبة، ولكنهم ذوو هيئة جميلة وفصاحة طبيعية.

الهند

تضم هذه الجهة ثلاثة بلدان كما سماها الحاج بوي مونشون: هي السند والهند، ونصف الهند الوسطى. ويمكن أن نتعرف مواقعها تبعاً للوصف الذي يقدمه المقدسي. فعند الخروج من كارامانيا في بلاد الفرس نحو الشرق نجد مكران في شستان وبعدها (توران) وهي Chalaban، ويأتي السند والهند و(كانوش)[1] وأخيراً (مولطان)، فكانتا على التوالي قلاعاً أو عواصم لكل هذه الدول بدءاً بمكران، Banachbur، و Cozdar المنصورة، و -Canuchk Vay hind، و Moltan التي تمثل المنطقة الشاسعة الموجودة بين ما يسمى اليوم أفغانستان بلوشستان وإندوستان.

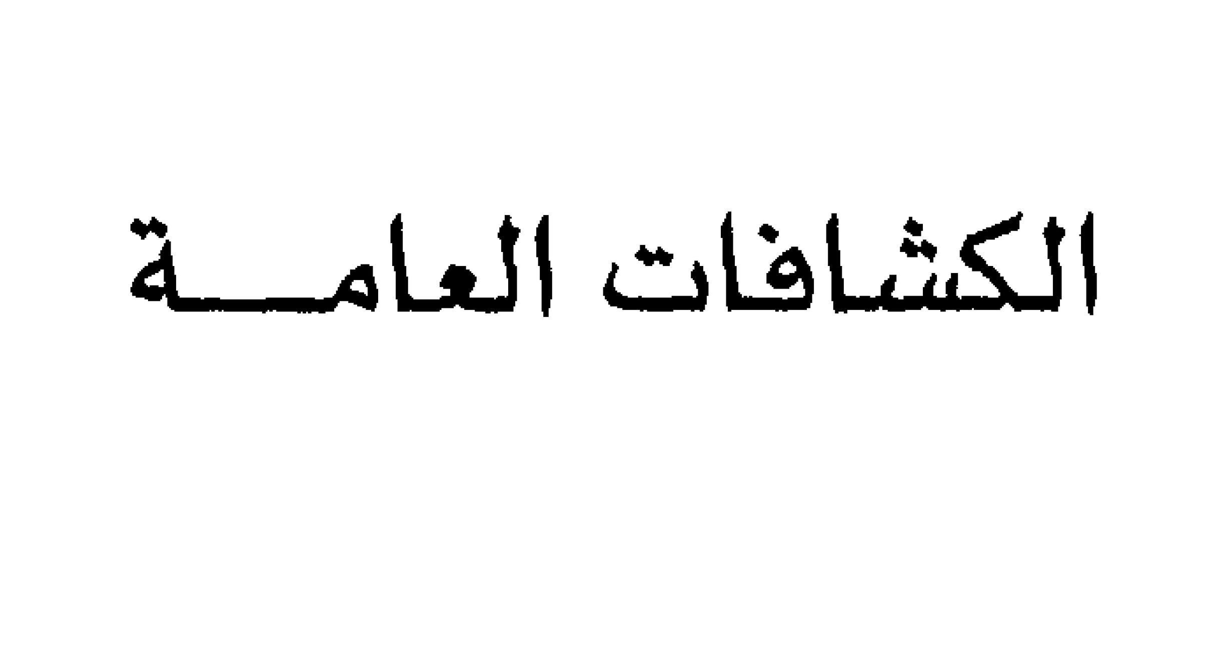
وهكذا فإن العالم الإسلامي كان مقسماً إلى أربعة مذاهب، حيث كان الشافعيون في الوسط، والأحناف في الشمال، والحنابلة في الجنوب، وأما الغرب فكان للمالكيين.

* * *

(١) كانوش: دولة توجد في الضفة الشمالية لنهر الغانج.

المراجع:

- Biget Henri : Les Strophes du Pelerin de Puey Monzon. Revue Tunisienne, (Tunis 114 (1916), 87 - 124).
- Braudel, F. ; EL Mediterraneo y El Mundo mediterraneo en la epoca de Felipe II, Madrid, 1976.
- Cardaillac, Louis : Moriscos y Cristianos, un enfrentamiento polemico. madrid, 1979.
- Diccionario de Historia de Espana : Los Moriscos, Madrid, 1979.
- Easino, Luisa grace del? : Edicion. Y estudio de las Coplas del alhiyante de Puey Monzon, University of Pensylvania, 1982, 350 P.
- Zuniga lopez, Ramon: Las Coplas del Alhichante de Puey Monzon,. Perigrinacion a la Meca de un morisco aragones a finales del siglo xvi. "Miscelanea de Estudios Arabes y hebraicos" (Granada) 2 (1988 - 1989) 449 - 479.



الكشافات العامة

الألف

الباء

العين

الغين

الفاء

القاف

الكاف

اللام

الميم



مطبعة
مركز الملك فيصل
للبحوث والدراسات الاسلامية



ردمك : ١ - ٢٨ - ٧٧